# الفصل الثاني

## الثقافة

### ١

## الحركة العلمية

ظهرت الشام على مسرح الحضارة العالمية منذ أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد، وهيأها لذلك موقعها بين حضارتي وادي النيل ووادي دجلة والفرات، ومما جعلها تنتقل سريعا من عالم البداوة والرعي إلى عالم الزراعة والاستقرار، وكان مما أسرع بها إلى هذه الغاية وقوعها في مفترق طريق العالم على الحاف الشرقية للبحر المتوسط، مما أتاح لها أن تكون دولة بحرية على الأقل في شواطئها فتشارك في الملاحة والتجارة على نحو ما هو معروف عن الفينيقيين وإتقانهم لفني التجارة والملاحة، وقد استطاعوا أن يشتقوا من حلل الحروف الهيروغليفية المصرية أبجديهم لهم، هي أم الأبجديتين اليونانية والرمانية اللاتينية. وقد أخذت الشام تعيش عصرا هيلينيا منذ دخلها الإسكندري المقودوني، ومضت تتعمق الثقافة الهيلينية في زمن خلفائه السلوقيين اليونانيين وزمن الرومان، واستطاع كثيرون من أهلها أن يتقنون اليونانية وان يسهموا في تراث اليونان الفكري والأدبي، وبخاصة سكان الثغور من غزة جنوبا إلى أنطاكية شمالا. ولمعت أسماء كثيرين من أبناء هذه الثغور في مجال المشاركة الفلسفية وبخاصة في صور وصيداء، سماهم وتحدث عن نشاطهم الفكري فيليب حتى وخاصة في مجال الفلسفة الرواقية وألافلاطونية الحديثة، إذ ذكر أنه كان في بيروت مدرسة تعني بدراسة القانون الروماني منذ أوائل القرن الثالث الميلاد، ويستظهر أن تكون اللاتينية لغة التعليم بتلك المدرسة، وإن كنت قد عادت مع أوائل القرن الخامس وسيطرة القسطنطينية عليها إلى اللغة اليونانية. وبالمثل شارك أبناء الثغور الشامية في الأدب اليوناني ولمع في صيداء اسم غير شاعر كان ينظم باليونانية.

وكل ذلك كان يصل الشام فكريا وفلسفيا وأدبيا ولغويا بالثقافة اليونانية، وإذا كانت ق اشتقت أبجديتها من الأبجدية الفرعونية، فإن مصر أثرت فيها تأثيراً بعيدا في عصرها المسيحي، إذ أخذت عنها الرهبنة التي أسسها أحد قساوستها في أواسط القرن الرابع للميلاد، وكانت أول بلدة شامية استجابت إليها غزة لقربها من مصر، ومنها انتقلت إلى كل بلدان الشام حتى أنطاكية، وكانت طوال العصر الهيليني تُعد ثالثة المدن في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية والإسكندرية.

ومما يدل بوضوح على مدى تأثير الهيلينية في الشام أن نارها تتعمق باديتها أيام الرومان إلى دولة تدمر النبطية حتى بلغت الذروة الطامحة إليها في عهد أذينة. وحين خلفته في الحكم أرملته زنوبيا اتخذت لونجينوس الذي علمها اليونانية مستشاراً لها، ويظن أنه كان حمصي الموطن، وقد أعدمه الرومان بعد قضائهم على زنوبيا سنة ٢٧٣م. هو يوضع في سلسلة النقاد المتأخرين من اليونان لما خلف من أفكار نقدية وبلاغية كثيرة.

وكل ذلك معناه أن الشام حين فتحها المسلمون كان بها تراث يوناني ومسيحي [١] يعدها للمشاركة سريعا في نشاطها العلمي والأدبي بمجرد دخول الإسلام في ربوعها الذي كان يدفع أتباعه دفعا إلى التزود بالعلم والمعرفة. وقد دخل أهل الشام في دين الله افواجا، وكان من حولهم الصحابة الفاتحون لديارهم، وعُنى كثيرون منهم بإقراء من أسلموا القرآن وعرض أحاديث الرسول عليهم، حتى يفقهوا فقها حسنا تعاليم دينهم الحنيف. وكانوا ما يزالون يفتونهم في المسائل حتى يتبينوا الحلال فيبتعوه والحرام فينبذوه. وكان من حسن حظ أهل دمشق خاصة أن نزل بين ظهرانيهم أبو الدرداء أحد حفظة القرآن لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم، كما مر بنا، وكان أول من تقلد القضاء بدمشق حتى توفي، وحبس وقت فراغه على إقراء الناس القرآن، وقد بلغ من أقرأهم ألفا وستمائة ونيفا، وكان يجعلهم عشرة عشرة وعلى كل عشرة عريف مقرئ، وكان يقف في محراب الجامع يراقبهم ويرمقهم ببصره. وإذا غلط واحد من أي عشرة رجع إلى عريفه، وإذا شك العريف في شئ رجع إلى أبي الدرداء، وأيضا يرجع إليه كل

(١) انظر في هذا التراث وكل ما ذكرت آنفا كتاب " تاريخ سورية ولبنان وفلسطين " لفيليب حتى– الجزء الأول– الترجمة العربية.

قارئ من العشرة إذا أحكم قراءة القرآن واستظهر جيداً [١]. وهذا العدد الضخم من حفظة القرآن في دمشق لأول عهدها بالإسلام يوضح مدى إقبال أهلها على العلم بالإسلام، وكان هناك كثيرون يفسرون لهم آيات منه كما كان هناك كثيرون يفتونهم،ونهض بذلك من نزل ديارهم من الصحابة واتخذوها موطنا، ثم من حملا عنهم علمهم من التابعين. وأصبحت دمشق سريعا حاضرة الخلافة الإسلامية منذ وليها معاوية، وطبيعي أن يعني الأمويون بمن يفقّه الناس في شئون دينهم، ومن يروى لهم حدث الرسول صلى الله عليه وسلم من كبار الحفاظ، ومن يفسر لهم بعض آي الذكر الحكيم، ومن يعظهم ويبلغ تأثير وعظه شغاف قلوبهم. وكان هناك القضاة الذين يحكمون بين الناس بالحق ويفتونهم فيما يجد من شئونهم.

ومعروف أمر عمر بن عبد العزيز لواليه على المدينة أبى بكر محمد بن عمرو بن حزم: أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنته أو نحو هذا فاكتبه لي، فإني خفت من صدر عن هذه الرغبة العظيمة ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة. وتدوينه للحديث أول تدوين عام له، وأخذ تدوينه بعده يتسع في الشام وغير الشام.

وسجلت الشام مبكرة سبقا في قراءة القرآن وإتقانها، فإن عريفا ممن كانوا يقومون على عشرة من حفظة القرآن بين يدي أبي الدرداء هو عبد الله بن عامر المتوفى سنة ١١٨ للهجرة استطاع أن يبلغ من إحكام قراءة الذكر الحكيم أن يكون له قراءة مستقلة، وأن يكون أحد القراء السبعة المشهورين في الأمصار الإسلامية لزمنه وبعد زمنه. وما نلبث بأخره من العصر الأموي وأوائل زمن الولاة في العصر أن نلتقي بفقيه مجتهد، وبلغ من اجتهاده أن أصبح إماما في الفقه وصاحب مذهب مستقل هو الأوزاعي أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو المتوفى سنة ١٥٧ ببيروت مسقط رأسه، ومعنى ذلك أن الحركة العلمية التي بعثها الأمويون في الشام وقاموا عليها بما كانوا ينفقون على علماء الدين في كل بلد شامي من أموال آتت ثمارها، فإذا الشام يصبح لها إمام فقيه يتدارس الفقهاء فقهه وكتبه في الأجيال التالية، وكذلك يصبح لها قارئ من القراء السبعة يقرأ أهل الشام بقراءته حقبا متعاقبة.

---

(١) انظر ترجمته في كتاب " غاية النهاية في طبقات القراء" لابن الجرزي (نشرة برجستراسر) ٦٠٦/١.

ونشطت الدولة الأموية لترجمة علوم الأوائل اليونانية وبعض الرسائل الأدبية الفارسية، وسنلمُ بذلك في غير هذا الموضع، إنما نهتم الآن بمتابعة الحركة العلمية الدينية واللغوية، ودائماً توجد مع العناية بالقراءات عناية واسعة باللغة والنحو ويقوم عليها مؤدبون، يعلمون الناس العربية في المساجد حتى لا يخطئوا في تلاوة الذكر الحكيم. ولم يقصّر الخلفاء وأمراء البيت الأموي في تأديب أبنائهم وإحضار المعلمين لهم، وفي كتب الأدب لهم وصايا لمؤدبي أبنائهم وكيف يهذبونهم ويقوّمون ألسنتهم. وكانوا ابتغاء دربتهم على العربية والنطق الفصيح يرسلون أحيانا بهم إلى البادية، حتى يتزودوا باللغة من ينابيعها الأصلية، وكان الوليد بن عبد الملك يلحن أحيانا، ولاحظ ذلك أبوه فقال: " اضرّ بالوليد حبنا له فلم نوجهّه إلى البادية"(١).

وظل هذا النشاط في تعلم اللغة بجانب النشاط في تعلم الدراسات الدينية، وأخذت تتوالى طبقات في زمن الولاة العباسيين تجعل همها التعليم في المدن وأيضاً في القرى، والدولة لا تُقصر، بل دائما تُجرى عليهم الرواتب، مما دفع إلى ظهور علماء في كل فرع من فروع الدراسات الدينية واللغوية.

ويُظل الشام عهد الطولونيين ثم عهد الإخشيديين وتزايد إدرارات الرواتب على العلماء ويطرد النشاط العلمي في الشام. واهتم معاوية أول خليفة أموي بأخبار الأمم القديمة، واستقدم لذلك من اليمن عُبيد بن شرية الجرهمي، وجعلها عبيد موضوعا لسمره وأحاديث معه، وجمع كثيرا من هذه الأحاديث في كتاب له سماه " كتاب الملوك وأخبار الماضين "، طُبع له في حيدر آباد مع كتاب التيجان في ملوك حمير ويلقانا منذ القرن الرابع للهجرة مؤرخون مختلفون في الشام، على نحو ما سيتضح ذلك في نهاية الفصل.

وجدير بنا أن نقف قليلا عن حركة علمية وأدبية باهرة دفع إليها سيف الدولة الحمداني (٣٣٣- ٣٥٦هـ) حين أظل لواءه حلب وإقليمها وما دان لحكمه من أنطاكية وحماة وغيرهما من بلاد الشام، ومر بنا حديث عن بطولته الخارقة وكيف كان يقف درعا، بل سدا منيعا للبلاد العربية أمام البيزنطيين وكيف نكل بهم وبجموعه مرارا وتكرار. وبجانب هذه البطولة الخارقة كان راعيا عظيما للعلوم والآداب والفنون في

(١) البيان والتبيين ٢/٢٠٥.

زمنه، مما جعل حلب عاصمته تصبح كعبة للقصاد من الفلاسفة أمثال الفارابي المعلم الثاني أكبر فلاسفة المسلمين حتى أيامه، ومن اللغويين والنحاة أمثال أبي على الفارسي وابن جني وابن خالويه. وسنراه عما قليل يرعى علماء الطب وأفذاذه، كما يرعى بعض المنجمين. أما الشعراء فلم يجتمع بباب أحد من الأمراء- بعد الخلفاء- ما اجتمع ببابه كما يقول الثعالبي. وقد أفرد له ولشعرائه فصولا طويلة في الجزء الأول من كتابه اليتيمة أمثال النامي والببغاء والوأواء الدمشقي والخالديين والسري الرفاء وكشاجم وابن نباته السعدي. ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق شاعر في الشام والعراق وإيران إلا قدم إليه مدائحه، ويكفي أنه نزل عنده لمدة تسع سنوات أعظم كوكب في سماء العشر العربي لزمنه: المتنبي الذي ملأ الدنيا بوصفه لبطولته وملاحمه مع الروم.

وتحكم الدولة الفاطمية الشام نحو قر، وفي أثنائه يتقلص حكمها عن حلب إذ لم تكد تستقر في يدها لأوائل القرن الخامس الهجري حتى استولى عليها بنو مرداس كما مر بنا في الفصل الماضي، ولا يبقى معها في العقد السابع من هذا القرن سوى صور وجنوبيها على شاطئ البحر المتوسط حتى غزة. من يرجع إلى كتب التراجم في تلك الفترة يجد هناك كثيراً من طبقات العلماء من محدثين وفقهاء وقراء ومفسرين ونحاة. وليس بين أيدينا نصوص توضح مد الرواتب و الأموال التي كان يبذلها الفاطميون ونوابهم وولاتهم لعلماء الشام. ولكن يكفي أن تكون الشام أنتجت في هذه الحقب أبا العلاء أكبر مفكر متفلسف إسلامي. وأكبر من تحمل مؤلفاته وأشعاره كل فروع الثقافة لزمنه، يكفي ذلك للدلالة على كما كانت تحظى به الحركة العلمية والفلسفية والشعرية من خصبة وازدهار رائع. وقد استقل بنو مرداس بحلب، ويصور ابن العديم في كتابه زبده الحلب من تاريخ حلب رعايتهم للشعر والشعراء، كان الشعر فيها لا يزال حيا ناشطاً منذ سيف الدولة، على الأقل من حيث استقبال الشعراء وبذل العطاء لهم، وكان جلال الملك ابن عمار قاضي طرابلس استقل بها لسنة ٤٧٠ وحاول أن يحدث بها حركة علمية شبيهة بما أحدث الفاطميون من دار العلم لعهد خليفتهم الحاكم، فأنشأ بها داراً سماها بنفس الاسم، وجعلها على غرارها في تنوع الدراسات بها وفي جلب الكتب الكثيرة إليها [1]، وكان من الممكن أن تحدث هذه الدار نشاطا علميا واسعا في الشام،

(١) حطط الشام لمحمد كرد على ٦٧/٦ وما بعدها.

غير أن حملة الصليب سرعان ما قدموا واستولوا على طرابلس سنة ٥٠٢ وأقاموا فيها إحدى إمارتهم، وبذلك وئدت حركتها العلمية وهي لا تزال ناشئة في المهد.

ويدخل أكثر الشام في حكم السلاجقة كما مر بنا في غير هذا الموضع، وكان وزيرهم نظام الملك المتوفى سنة ٤٨٥ رأى أن ينشئ مجموعة من المدارس في المدن الكبيرة لدولتهم في إيران والعراق لمحاربة النحلة الإسماعيلية ونشر المذهب الشافعي والعقيدة الأشعرية الكلامية، وعرفت كل مدرسة من هذه المدارس باسم المدرسة النظامية. وكان السلاجقة كلما دان لهم بلد لم يلبثوا أن أسسوا فيه مدرسة، وظلت المساجد بجانب مدارسهم ساحات كبيرة للعلم والمعرفة. وهو ما جعل العلم العربي بجميع فروعه شعبياً، فكل فرد من أفراد الشعب يحق له أن يجلس إلى اي حلقة من حلقات الشيوخ، أما إذا انتظم في مدرسة فإنه كان يأخذ راتباً معينا يكفل له الحياة. وكان السلاجقة يفسحون في بناء المدارس لقوادهم ولذوى الثراء. وأول مدرسة بنيت في دمشق المدرسة الصادرية[١] بنها شجاع الدولة صادر بن عبد الله لدراسة الفقه الحنفي سنة ٤٩١. وفي سنة ٥١٤ بني أتابك العساكر الملقب بأمين الدولة أول مدرسة [٢] للشافعية، ثم بُنيت للأحناف المدرسة الطرخانية سنة ٥٢٥ وبعدها بقليل بنيت لهم المدرسة البلخية. وبنيت في هذه الأثناء أول مدرسة بحلب سنة ٥١٦ وهي المدرسة الزجاجية بناها حاكمها الأرتقي بدر الدولة أبو الربيع سليمان.

ويُظل الشام لواء الزنكيين عماد الدين ونور الدين محمود وخليفته صلاح الدين ثم الأيوبيين، وتتنفس الصعداء فبالرغم من أن هؤلاء الحكام كانوا في شغل مستمر بحروب حملة الصليب وهدم قلاعهم وحصونهم كانوا يبنون ويؤسسون المدارس لفقهاء المذاهب الأربعة، ومضى على منوالهم المماليك بحيث تزدهم في الشام نهضة علمية رائعة. وكان يوقف على كل مدرسة أوقاف دارة تكفل للمدرسين والمعيدين رواتب مجزية. وكان يلحق بالمدرس مبان للطلاب، يقدم لهم فيها الغذاء ويقيمون فيها للراحة والنوم. وكانت تلحق أيضا بالمدرسة خزانة كتب يختلف إليها الطلاب للقراءة والبحث، وكان يقدم إليهم

---

(١) الأعلاق الخطيرة لبن شداد ك تارخي مدينة دمشق ص ١٩٩ والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ٤٢٩/١.

(٢) سميت الأمينية نسبة إلى مؤسسها ويقال إنه بنيت قبلها مدرسة سميت الجاروخية وانظر في حديثنا عن المدارس المصدرين السالفين.

الورق وأدوات الكتابة. ويذكر ابن جبير في رحلته لسنة ٥٧٨ أنه رأى بدمشق عشرين مدرسة وبحلب خمس مدارس يقول: "ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين، وبها قبره نوّره الله، وهي قصر من القصور الأنيقة" بناها سنة ٥٦٣ لأصحاب الفقه الحنفي. وقد أخذت المدارس تتكاثر كثرة مفرطة في دمشق وحلب وغيرهما من بلدان الشام. ولم يقف تشييدها عند السلاطين الأيوبيين، فقد اشترك معهم فيها نساؤهم وقوادهم والأمراء من بينهم خاصة حكام البلدان الشامية، كما اشترك بعض ذوى اليسار. وقد عد ابن الشحنة منها في كتابه الدر المنتخب في مدارس حلب نحو خمسين مدرسة في بلدة شامية واحدة أسست بين سنتي ٥١٦ و ٥٦٥ وجاء بعده ابن شداد، فعد لدمشق سنة ٦٨٠ وهي سنة تأليفه للأعلاق الخطيرة أربعة وثلاثين مدرسة حنفية وأربعين مدرسة شافعية وثلاثة مالكية وعشرة حنبلية. ويعكس هذا العدد حقيقة كبرى هي مدى شيوع هذه المذاهب في الشام فأكثرها انتشاراً فيه المذهب الشافعي ثم المذهب الحنفي ثم المذهب الحنبلي ثم المذهب المالكي. ولم يبن للمذهبين الأخيرين مدارس إلا في عهد الأيوبيين منذ صلاح الدين. وكان بيت المقدس يكتظ هو الآخر بمدارس المذاهب الأربعة، وعلى شاكلته كثير من مدن الشام الكبرى، وفي ذلك يقول ابن خلكان عن نور الدين محمود إنه "بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل دمشق وحلب وحماة وحمص وبعلبك ومنبج"[١]. وبجانب مدارس المذاهب الفقهية عنوا بتأسيس مدارس الحديث النبوي، من ذلك دار الحديث النورية التي أسها نور الدين محمود بدمشق، ووليّ مشيختها الحافظ المؤرخ الكبير ابن عساكر. وبني الأشرف موسى الأيوبي صاحب دمشق دار حديث بها ثانية سنة ٦٣٠ وألحق بها خزانة كتب ومسكناً لشيخها، ووقف عليها أوقافا كافية. وأسند مشيختها إلى ابن الصلاح الحافظ المحدث المشهور، وفيما بعد أسندت إلى الإمام الشافعي: النووي.

وبدون ريب بعثت هذه المدارس الكثيرة كثرة مفرطة بالشام نهضة علمية باهرة، فكث العلماء في كل علم حتى ليروى العماد الكاتب "الفتح القدسي" أنه وزع في إحدى المناسبات على علماء دمشق ستمائة دينار فخصّ كل عالم دينار واحد [٢]، أي أنه

---

(١) ابن خلكان في ترجمة نور الدين محمود ٥/١٨٥.

(٢) الفتح القدسي ص ٤٨١.

obeikandi.com

كان بها حينئذ ستمائة علام غير من لم يشملهم التوزيع ومن لم يحضروه. وما بالنا إذن بما كان ينفقه نور الدين بل صلاح الدين بعده على العلماء والمدارس، لابد أنه كان يبلغ مئات الألوف من الدنانير. وساعد على هذه النهضة نور الدين وصلاح الدين وسلاطين أسرته. ويروى ابن خلكان في ترجمة نور الدين إنه كان لا يزال يحتاج إلى الأموال الكثيرة في حربه لحملة الصليب فقال له بعض أصحابه غن في بلادك إدرارات وصدقات وصلات كثيرة على قراء الذكر الحكيم والفقهاء والصوفية، ولو استعنت بها لكانت اصبح، فغضب من ذلك غضبا شديدا وزجر صاحبه زجراً عنيفاً. وكان صلاح الدين على شاكلته في العناية بالفقهاء القراء ولا صوفية، وكن يتخلص من أوقاته ما يعطيه الفرصة لحضور مجالس العلماء مهما بعدت الشقة كما حدث في ذهابه إلى الإسكندرية للاختلاف إلى حلقة السلفي الحافظ المشهور [١] واشتهر المعظم عيسى صاحب دمشق بتعمقه في الفقه وأنه ألف فيه كتابا وأيضاً فإنه كان يتعمق في دراسة النحو [٢] فسلاطين بني أيوب كانوا مثقفين [٣]، ولذلك حاولوا أن يدفعوا الحركة العلمية إلى الذروة.

ويعد صاحب الأعلاق الخطيرة لدمشق نحو ثلاثمائة مسجد غير الزوايا والخانقاهات، وكثير منها كانت تلقى فيه المحاضرات والدروس، وظل هذا الحشد الهائل من الخانقاهات والمساجد والمدارس في زمن المماليك وأخذوا يضيفون كثيراً من الخانقاهات ومدارس الفقهاء وغيرهم من علماء الدين والعربية وحقا كانت كثرة المماليك غير مثقفين، وهم من هذه الناحية يختلفون عن سلاطين بين أيوب، ومع ذلك عنوا عناية واسعة بالثقافة وبناء المدارس والمساجد والخانقاهات والإنفاق عليها من سعة، على أنه عرف بعض متأخريهم بمدارسه العلم ورعاية العلماء والأدباء مثل السلاطين: برقوق والمؤيد شيخ وقايتباي والغوري.

---

(١) سمع ابنه العزيز صاحب مصر بعده الحديث عن السلقي أيضا: انظر النجوم الزاهرة ١٢٧/٦.

(٢) مختصر مرآة الزمان ٤٢٦ وما بعدها.

(٣) مما يذكر عن هؤلاء السلاطين أنه كان لهم بعض مؤلفات، فكما كان للمعظم عيسى كتاب في الفقه الحنفي كان للمنصور محمد الأيوبي صاحب حماة كتاب في تاريخها ومن زارها واتخذها مسكنا من الأعلام (مختصر مرآة الزمان ٤٢١) وكان الأمجد الأيوبي صاحب بعلبك يحضر دروس الحفاظ اليونيني، وكانوا يعدون حضور مجلس العلماء شرفا ما بعده شرف.

ومعنى ذلك أن الحركة العلمية ظلت مزدهرة طوال أيام المماليك، غير أنه يلاحظ أن نفوذ الفقهاء ازداد في هذا العصر وازداد معه نفوذ المتصوفة وشاع معه الاعتقاد في كرماتهم والمبالغة في ذلك، وبدون ريب كان بينهم كثيرون أجلاء على معرفة وفقه بصير بالشرع، ولكن كان بينهم دخلاء مشعوذون جعلوا العامة يتعلقون بالأولياء، ومنحوهم علم الغيب والقدرة على إنفاذ ما يريده المتوسلون بهم. ويقف المستشرقون عندما نزل بابن [١] تيمية من محن، ويحاولون أن يتخذوا من ذلك دليلا على جمود الفكر الديني حينئذ غير ملاحظين أن ابن تيمية نفسه كان إماما حنبليا يدين بمذهب ابن حنبل وهو أكثر المذاهب سلفية. مع ذلك كان من أكثر فقهاء عصره تحرراً فكرياً، وقد حارب الصوفية في منازعهم الفلسفية وكل ما قالوا به في الحلول ووحدة الوجود وحارب الشيعة الإسماعيلية وما يزعمون لأئمتهم من العصمة وتمثيل العقل الكلي وما يتصل به من تجسد الإله في الخليفة، وخصهم بكتابه عن الباطنية وجعله تحرره الفكري يفتح باب الاجتهاد على مصرعيه ويفتى فتاوى حرة في كثير من مسائل الشرع. وجلب عليه لك سخط فئات كثيرة وخاصة من الفقهاء وعلماء الكلام الأشعرية، إذ شملتهم هجماته. وهي هجمات صريحة جريئة ألتب عليه كثيرين من الخصوم في بيئات مختلفة، وبدأ ذلك بوضوح منذ سنة ٦٩٨ إذ جاءه سؤال من حماة عما في القرآن الكريم من آيات قد تفيد التشبيه على الذات العلية إذا فُهمت على ظاهرها مثل" (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) و(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) ومذهب المعتزلة والأشعرية تأويل مثل هذه الآيات، وأن المراد في الآية الاستيلاء على العرش، ومعنى كلمة يد في الآية الثانية القدرة. ومذهب الحنابلة، وهو ما أجاب به ابن تيمية في رسالة مستقلة: أن واجباً أن نؤمن بما جاء في القرآن من هذه الصفات دون كيفية دون كتشبيه بالمخلوقات وأيضاً دون تأويلها فوق طاقة الإنسان. وسرعان ما اتهمه الفقهاء الاشاعرة بأنه يرى في

(١) انظر في ترجمة ابن تيمية قوات الفويات ٦٢/١ والنجوم الزاهرة ٩ /٢٧١ والمنهل الصافي ٣٣٦/١ وتذكرة الحفاظ الذهبي ٢٢٨/٤ وتاريخ ابن الوردي ٢٨٤/٢ والدرر الكامنة ١٥٤/١ والقول الجلي في ترجمة الشيخ نقي الدين بن تيمية الحنبلي لصفي الدين الحنفي والكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية لمرعى الكرمى وابن تيمية للشيخ محمد أبو زهرة وابن تيمية للدكتور محمد يوسف موسى وأسبوع الفقه الإسلامي ومهرجان ابن تيمية طبع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع.

الذات العلية رأى المجسمة أو المشبهة، ورفعوا أمره إلى قاضي القضاه بدمشق فبرأه من التهمة. ونجاه الله من هذه المنحة.

ثم كانت التهمة الثانية لابن تيمية في سنة ٧٠٥ بسبب حملته على الطريقة الصوفية الرفاعية وما يموه به أصحابها على النسا من النفوذ من النار غير ذلك من كرامات يدُعونها، وشكوه إلى نائب السلطنة بدمشق، فأمرهم النائب أن يكفوا عن حيلهم وخداعهم للناس كما مر بنا. وفي نفس السنة طُلب إلى القاهرة لمناظرة علمائها واجتمعوا له- وخاصة فقهاء الشافعية الأشاعرة- وأخذوا يناقشونه في إثبات الصفات على الله حسب ظاهرها القرآني، فالله استوى- كما يقول- حقيقة على العرش ونحو ذلك. وجادلهم ابن تيمية طويلاً موضحاً رأيه في الإيمان بهذه الصفات دون كيفية دون إثبات تجسيد على الله، غير أنهم حكموا عليه بالسجن وظل فيه عاما وبضعة أشهر. ولبث في القاهرة يعّلم ويعظ، وسرعان ما أوقع به خصومه بدعوى حملته على أصحاب المنزع الفلسفي في التصوف القائلين بالحلول ووحده الوجود. وسُجن بالإسكندرية، حتى إذا رقي عرش مصر الناصر بن قلاوون سنة ٧٠٩ ردّ إليه حريته وأكرمه إكراماً عظيماً. وفي سنة ٧١٢ عاد إلى دمشق وتفرغ للتأليف وألافتاء، حتى إذا كانت سنة ٧١٨ وأفتى أن الحلف بالطلاق كالحلف بالله يكفرّ عه وأن الطلاق بالثلاث يُعد طلقة واحدة. حينئذ ثارت ثائرة الفقهاء، حتى أجبروا السطلان على منعه من الفتوى بذلك، وصعد السلطان لمشيئتهم. غير أنه عاد إلى ألافتاء بما ذكرناه في سنة ٧٢٠ وعُقد بدمشق مجلس لمحاكمته، وسُجن ولبث في السجن خمسة أشهر وأياماً ثم رُدت إليه حريته. حتى إذا كانت سنة ٧٢٦ أفتى بأن الرحلة إلى قبور الأنبياء والأولياء والصالحين معصية من أشد المعاصي، فاعتُقل بسبب هذه الفتوى وجُعل في قاعة حسنة بقلعة دمشق وأقام بها مشغولا بالتصنيف والتأليف، وبأخرة من أيام سجنه مُنع من الأوراق والدواة والقلم، ولم يلبث أن توفي سنة ٧٢٨.

وواضح أن محنة ابن تيمية وسجنه لم يكونا بسبب اجتهاده في مسائل الشرع وإنما بسبب تعرضه لمسألة عقيدية تتصل بصفات الله وأخرى تتصل بزيارة قبور الأنبياء والأولياء. وكان في الصفات يأخذ برأي السلف ويترك رأي الأشاعرة والمعتزلة أي أنه لم يكن اجتهادا منه، أما مسألة الاجتهاد في الشرع فقد تركها العلماء له. ولسنا بصدد

إحصاء آرائه الفقهية الجديدة. إنما حسبنا أن نشير إليها وأن نتخذ منها دليلا- كما مر بنا آنفا- على أن باب الاجتهاد ظل مفتوحا على مصرعيه طوال زمن المماليك حتى بين الحنابلة. واشتهر في كل مذهب فقهي مجتهدون جدد مثل النووي في المذهب الشافعي. ونفس آراء ابن تيمية ظلت حية عاملة بعده إلى أن استمدت منها الحركة الوهابية بواعثها بعد أربعمائة من السنين. وإذا كان قد تورط بعض فقهاء الشافعية في محاكمته بدمشق والقاهرة فإن ابن تغري بردي يذكر أن كبيرهم في دمشق ابن الزملكاني ونظيره في مصر ابن دقيق العيد اثنيا عليه ثناء عطرا وينقل عن ابن الزملكاني قوله عنه "العلامة الأوحد الحافظ المجتهد الزاهد العابد القدوة إمام الأئمة، وقدوة الأمة، علامة العلماء، وارث الأنبياء، آخر المجتهدين، أوحد علماء الدين.. محيي السنّة ومن عظمت به لله علينا المِنة".

وعلى هذا النحو كانت الحياة العلمية نشطة مزدهرة في زمن المماليك، وكانوا يشجعون العلماء والأدباء، وطالما اقترحوا على بعض المؤلفين تأليف هذا الكتاب أو ذاك، وكانت البلاد دارة وقضائها على المذاهب الأربعة يحكمون بين الناس بالعدل. فلما أظل لواء العثمانيين الشام أصابها ما أصاب مصر من انتكاس الحركتين العلمية والأدبية، ومع ذلك ظلت جذوة منهما متقدمة في بعض المدارس والجوامع وبخاصة في الجامع الأموي بدمشق، إذ ظلت فيه حلقات التدريس. ومرّ بنا أن الحكم العثماني بالشام أخذ يسوء سوءاً شديدًا، وأخذت المظالم فيه تزداد والضرائب تتضاعف، وكان لذلك أثره في تدهور الحركتين العلمية والأدبية. وألغى العثمانيون نظام قضاة المذاهب الأربعة الذي وضعه الظاهر بيبرس وظل قائما طوال أيام المماليك، حتى إذا حكموا البلاد استعاضوا ع هؤلاء القضاة بقاضٍ عام واحد هو قاضي العسكر، وألغوا استخدام العربية في دواوين الولاية، واستخدموا مكانها التركية، وكان ذلك تأثيره على الكتابة والكتاب، فلم تعد تكتب رسائل ديوانية ولا مناشير وتقاليد بالعربية، غير أن العربية كانت لغة الدين الحنيف، فظلت حية في ديار الشام هي والعلوم الدينية، وأيضًا العلوم اللغوية، حتى ليلقانا من حين إلى حين نابغون في الدراسات الدينية وفي الشعر والنقد والتصوف والتاريخ.

٢

# علوم الأوائل- علم الجغرافيا

## (أ) علوم الأوائل

مرّ بنا- في فاتحة الفصل- أن الشام شاركت في التراث اليوناني منذ انتشرت فيها الثقافة الهيلينية وبخاصة في ثغورها: صور وصيداء وبيروت وأنطاكية. وظلت هذه المشاركة مستمرة حين اعتنقت المسيحية. فكان كثيرون من سكان الأديرة ورهبانا يعرفون ما لليونان من تراث في الفكر الفلسفي والعلمي، ومنهم من كان يحذق اليونانية، وبذلك كانت الأديرة مراكز للثقافة الهيلينية قبل الفتح الإسلامي وبعده. وبالمثل ظلت أنطاكية وبعض الثغور الشامية تعني بتلك الثقافة.

ويلقانا في عهد معاوية طبيبان من الأطباء المتميزين في دمشق حينئذ هما ابن أثال، ويقول ابن ابي أصيبعه إنه كان خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة [١]، وأبو الحكم وكان عالما بأنواع العلا والأدوية [٢]. وهما يرمزان إلى ما نقوله منن أن التراث العلمي اليوناني،و بخاصة علم الطب، ظل حيا في ديار الشام، مما أتاح لخالد بن يزيد بن معاوية أن يتعلق به، وقال مترجموه إنه كان يشغف بكتب الكيمياء والطب والنوم، كما قالوا إنه أحضر من الإسكندرية بعض الفلاسفة الحاذقين لليونانية والعربية وأمرهم أن يترجموا له كتبا في الكيمياء، ويبدو أنه تعمقها حتى استطاع أن يؤلف فيها كتبا ورسائل، يقول صاحب الفهرست: " رأيت من كتبه كتاب الحرارات وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكاب وصيته في الصنعة (الكيمياء)" [٣]. ونمضي بعد خالد فنلتقي بالخليفة عمر بن عبد العزيز، ويقول ابن ابي أصيبعة إنه نقل تدرسي علوم الأوائل من الإسكندرية إلى أنطاكية وحرّان [٤] وناقش ماكس مايرهوف هذا القول

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص ١٧١.

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ١٧٥

(٣) الفهرست ص ٣٣٨

(٤) ابن أبي اصيبعة ١٧١.

obeikandl.com

واثبت بطلانه [١]، إذ كانت أنطاكية وحران جميعا من المراكز التي عنيت قديما بدراسة التراث اليوناني، وربما دفع ابن أبي أصيبعة إلى هذا القول أنه رأى عمر يستقدم طبيبا من الإسكندرية هو عبد الملك بن أبجر، ويتخذه طبيبا [٢] له، ويبدو انه كان قد تعرف عليه في أثناء ولاية أبيه على مصر، فلما ولي الخلافة استقدمه وأسلم على يديه، وظل يعتمد عليه في صناعة الطب. وربما دفع ابن ابي أصيبعة إلى هذا القول أيضا أنه أمر بنقل كتاب القس أهرون الإسكندري في الطب إلى العربية، ويبدو أنه كان قد نال شهرة في علم الطب لزمنه، ومع ذلك لم يترجمه أحد علماء أنطاكية لعمر، وإنما ترجمه ماسر جويه [٣] البصري. ولو أنه فكر حقا في نقل التعليم- وخاصة تعليم الطب- إلى بلد بالشام لنقله إلى عاصمته دمشق كما صنع خالد بن يزيد بن معاوية.

على كل حال كان التراث اليوناني الفلسفي والعلمي معروفا- طوال زمن بني أمية- في أنطاكية وبعض مدن الشام وفي الأديرة، وأخذت تؤلف بعض الكتب على ضوئه كما صنع خالد ابن يزيد بن معاوية، كما أخذت تنقل منه إلى العربية بعض الرسائل والكتب على ضوئه كما صنع خالد رئيس ديوان الإنشاء لهشام بن عبد الملك ترجم بعض رسائل أرسطاطاليس إلى العربية [٤]، ويذكر بروكلمان انه تُرجم- أيام الأمويين سنة ١٢٥- كتاب مفتاح أسرار النجوم [٥]. وكل ذلك يؤكد أن جو الشام كان مشبعا بالتراث اليوناني العلمي والفلسفي. وظل المعنيون بعلوم الأوائل يتنفسون في هذا الجو طوال زمن الولاة العباسيين. ويبدو أن دمشق ظلت تعنى بها وبخاصة الطب، ومن أطبائها في القرن الثاني الحكم [٦] بن أبي الحكم، وكان أبوه طبيب معاوية وقد عُمر عيسى [٧]- على غراره- طبيبا، واستقدمته أم ولد للرشيد لعلاجه، وله في الطب كناش كير. ويبدو أنه أسس في دمشق مرصد كبير، إذ نرى المأمون يطلب مراجعة جداول بطليموس الفلكية على أرصاد تمت في بغداد ودمشق وقد طلب أن تقاس إحدى

---

(١) انظر مقالة ماكس مايرهوف: من الاسكندرية إلى بغدد في كتاب التراث اليوناني للدكتور عبد الرحمن بدوي.

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ١٧١.

(٣) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٨٠، ٣٢٤.

(٤) الفهرست ص ١٧١.

(٥) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف) ٩٠/٤.

(٦) ابن أبي اصيبعة ص ١٧٦.

(٧) ابن أبى أصيبعة ص ١٧٧.

obeikandl.com

درجات خط الزوال [١]، ويعلق على ذلك بروكلمان بأن المسلمين استطاعوا ببحوثهم المستقلة أن يسبقوا معلميهم من الهنود والإغريق في وقت قصير.

وظلت الشام تشارك في حركة الترجمة للتراث اليوناني، ومن كبار مترجميها عبد المسيح [٢] ابن عبد الله بن ناعمة الحمصي المتوفى لعهد المعتصم ( ٥٢١٨- ٢٢٧ هـ) اشتهر بترجمته لكتاب الأغاليط لأرسطو يحيي النحوي على كتابه: السماع الطبيعي، وترجم أيضا عن اليونانية كتابا منسوباً إلى أرسطو خطأ وهو المسمى أثولوجيا أو ربوبية، وهو تلخيص مقتبس من تاسوعوات أفلوطين الإسكندري، ولذلك تشيع فيه نزعة افلاطونية محدثة.

ونمضي إلى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، ويلمع اسم قُسطا [٣] بن لوقا المولود ببعلبك في اوائل القرن، وقد ترجم للخليفة المستعين (٢٤٨- ٢٥١ هـ) كتابين: كتاب لثيودوسيوس وكتاب الحيل لهيرون.و ذكر له ألدوميلي ترجمات أخرى، وترك مؤلفات كثيرة منها رسالة في العمل بالكرة الفلكية، والجامع في الدخول إلى علم الطب، ومقدمة إلى علم الرياضيات، والمدخل إلى الهندسة، والمدخل إلى علم المنطق، إلى مؤلفات أخرى كثيرة تتناول فروع العلم والفلسفة، توفي سنة ٣٠٠ للهجرة. وكان يعاصره مترجم كبير هو حُبيش [٤] بن الحسن الأعسم الدمشقي وهو ابن أخت حنين بن إسحق وتلميذه، وكان يترجم عن اليونانية والسريانية، وساعد خاله في كثير من تراجمه، ومما ترجمه عهد بقراط وكتاب الحشائش لديسقوريدس، وكل كتب جالينوس، وله كتاب في الأدوية المفردة وآخر في الأغذية. ومن كبار أطباء دمشق سعيد [٥] ابن يعقوب الدمشقي وقد ولاه على بن عيسى وزيرا لخليفة المقتدر أمر مارستان بغداد سنة ٣٠٢ وله ترجمات كثيرة، ترجم إيساغوجي (لفوفوريوس) والمقالات السبع الأولى من كتاب الجدل لأرسطو، وعُنى بترجمة الكتب الرياضية اليونانية وفي مقدمتها الجزء العاشر من

---

(١) بروكلمان ١٩٦/٤ ويذكر القفطي ص ٢٨١ منجما خبيرا بالكواكب تولى الرصد للمأمون على جبل قاسيون بدمشق، انظر القفطي ص ٣٥٧.

(٢) انظر في عبد المسيح بروكلمان ٩٥/٤ ودبي بورص ٢٢ وعلوم اليونان لأولير ص ٢٢٧.

(٣) انظر في ترجمة قسطا القفطي ٢٦٢ واين أبي أصيبعة ٣٢٩ وبروكلمان ٩٧/٤ وألدوميل ص ١٦٥ وما بعدها.

(٤) راجع في حبيش القفطي ١٧٧ وابن ابي أصيبعة ٢٧٦ وبروكلمان ١١٧/٤ وألدوميلي ص ١٤٣.

(٥) انظر في سعيد ابن أبى أصيبعة ٢٨٢ وبروكلمان ١١٨/٤ وألدوميلي ص ٢١١.

obeikandl.com

أصول إقليديس وشرحه لبابوس، ولا يوجد من هذا الشرح سوى ترجمته العربية، وترجم أيضا كتبا لجالينوس.

وهذه الأسماء التي ذكرناها إنما هي رمز لما ظل بديار الشام من نشاط العلوم الأوائل والمتعلقين بها طوال القرون الثلاثة الأولى وحقبا من القرن الرابع، وفيه يقود سيف الدولة– كما مر بنا– حركة أدبية وفلسفية علمية ناشطة في عاصمته حلب، مما جعل كثيرين من أعلام الفكر والعلم والأدب في زمنه يلمون بحضرته، وكثيرا ما كانوا يختارون الإقامة عنده، وكان ممن اختار المقام ببلاطه في الأدب في زمنه يلمون بحضرته، وكثيرا ما كانوا يختارون الإقامة عنده، وكان ممن اختار المقام ببلاطه في حلب أكبر فيلسوف عربي في زمنه الفارابي [١]، وقد ظل عنده حتى لبي نداء ربه سنة ٣٣٩. وأحدث نزول الفارابي بحلب نشاطا فلسفياُ وفكرياً ظل سنوات مقامه بها وامتد بعد وفاته، ومعروف أنه عُنى بمزج فلسفة أرسطو بالمذهب ألافلاطوني الجديد. ولعل مما يدل على اتساع النشاط الطبي والعلمي والفلسفي بالشام لتلك الأيام ما ذكره القفطي عن سيف الدولة من أنه كان إذا أكل الطعام وقف على مائدته أربعة وعشرون طبيبا ثم يقول: كان فيهم من يأخذ راتبين لأجل تعطيه علمين ومن يأخذ ثلاثة رواتب لتعاطيه ثلاثة علوم، ويذكر أن طبيبه المسمى عيسى النفيسي أن يأخذ ثلاثة رواتب: راتبين بسبب إحسانه لعلمين وراتبا ثالثا جزاء ترجمته من السريانية إلى العربية[٢] وذكر القفطي بينهم في موضع آخر من كتابه ابن كشكرايا [٣] وكان طبيبا مشهورا عيّنه فيما بعد عضد الدولة البويهي بالبيمارستان المنسوب إليه ببغداد، كما ذكر أيضا بين من كانوا يحضرون مجالس سيف الدولة أبا القاسم [٤] الرقي، وكان من أصحاب التنجيم وعلم الهيئة والطب.

وهذا نشاط لعلماء الأوائل في بيئة واحدة من بيئات الشام أثناء القرن الرابع، ويبدو أنه بقيت بقايا من هذا النشاط زمن الفاطميين بدمشق وشاطئ الشام وعند المرداسيين بحلب والسلاجقة في حلب ودمشق، يدل على ذلك ما يلقانا من أطباء مختلفين في تلك

---

(١) راجع في الفارابي وفلسفته ومراجعه كتابنا العصر العباسي الثاني ص ١٤٠ وما بعدها.

(٢) القفطي ص ٢٥٠.

(٣) القفطي ص ٤٠٣

(٤)القفطي ص ٤٢٩

الديار مثل البيرودي [١] في القرن الخامس وظافر [٢] بن جابر السكري ومبشر [٣] بن فانك في نفس القرن ومثل ابن الصلاح [٤] وابن البذوخ [٥] في القرن السادس. ومن المؤكد أن نزول حملة الصليب بديار الشام أصاب هذه الحركة بغير قليل من العطل، مع ذلك فقد تحولوا تلامذة لأطباء العرب يتعلمون على أيديهم فنوناً من الجراحة والطب، ورأى بعض أطباء العرب- كما روى أسامة بن منقذ- أحد أطبائهم يعالج بعض مرضاه علاجا يدل على جهله بالطب، فسخر منه سخرية شديدة، وسجل على الصليبيين عامة انحطاط الطلب عندهم انحطاطا مزريا، على نحو ما صور ذلك في كتابه "الاعتبار".

وندخل في زمن الزنكيين ونور الدين محمود وصلاح الدين والأيوبيين، ويعظم الاهتمام بالمرضى وبمن يعالجهم من الأطباء، وتنشأ لهم بيمارستانات، ينزلونها وتقدم لهم فيها الأدوية والأغذية حتى يتم شفاؤهم. ويذكر ابن جبير في رحلته بمارستانين رآهما بدمشق سنة ٥٧٨: أحدهما قديم والثاني حديث، ويقول أن الحديث أحفلهما وأكبرهما وجرايته (نفقته) في اليوم نحو خمسة عشر ديناراً، وله قومه (موظفون) بأيديهم الأوراق المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك. والأطباء يبكرون إليه كل يوم ويتفقدون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق لكل إنسان منهم. ويقول إن المارستان القديم على هذا الرسم ولكن الاحتفال في الجديد أكثر، ويذكر أن للمجانين المعتقلين ضربا من العلاج وهم في سلاسل موثقون. ثم يقول: وهذان المارستانان مفخرة عظيمة من مفاخر الإسلام. ولم تكن المارستانات دور علاج فحسب، بل أيضا كانت مدارس يمرّن فيها شباب الأطباء ويتلقون فيها عن شيوخ اطلب محاضرات متنوعة. وأخذت البيمارستانات تُبنى في ديار الشام حتى لنلتقي بمارستانات في صرخد بفلسطين. وجعل ذلك الطب يعود إلى نشاطه، فيتكاثر الأطباء ويتأثر المهتمون بعلوم الأوائل حتى

---

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٦١٠

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٦١٤

(٣) القفطي ص ٢٦٩

(٤) القفطي ص ٤٢٨ وابن أبي أصيبعة ص ٦٣٨

(٥) ابن أبي أصيبعة ص ٦٢٨.

ليعون في كتاب ابن أبي أصيبعة بالعشرات. ولن نستطيع أن نقف عندهم جميعا إنما نقف عند مشهوريهم، ونبدأ بشمس [١] الدين اللبودي المتوفى بدمشق سنة ٦٢١ وكان يطبّ في البمارستان النوري الكبير بدمشق، وكان له مجلس للاشتغال عليه بصناعة الطب وغيرها. وكان يعاصره الدّخوار [٢] مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدمشقي مولدا ودارا رئيس بيمارستان دمشق الذي أسسه نور الدين محمود، توفي سنة ٦٢٨ وأفرد ابن أبي أصيبعة له في طبقاته فصلا طولا تحدث فيه عن حياته، وله مؤلفات كثيرة، وكان يتخذه داره مدرسة لتعليم الطب، وقفها على هذه الغاية في حياته وبعد مماته. وكان اثره يف تعليم الطب بدمشق واسعا، وثقفته على يديه جماعة كبيرة.

وكان مما ساعد على ازدهار الدارسة لعلوم الأوائل ما ذكرناه في الفصل الماضي من أن أمراء البيت الأيوبي توزعوا بلدان الشام فيما بنهم، وتحول كل أمير منهم في بلد إلى راع للعوم والآداب بها، ودفع ذلك إلى تنافس بينهم، مما أكثر من العلماء في كل فروع العلم، ونلتقي بمنصور بن فضل المشهور باسم رشيد [٣] الدين الصوري المتوفى سنة ٦٣٩ وُلد بصور، ولذلك نسب غليها واشتغل بالطب على أساتذته، وأقام بالقدس سنتين يعالج الناس في بيمارستانها، ثم انتقل إلى دمشق وفوضت إليه رياسة الطب والأطباء بها، وكان بارعا في معرفة الأدوية المفردة وماهيتها واختلاف أسمائها وصفاتها وتحقيق خواصها وتأثيراتها كما يقول ابن أبي أصيبعة، وبذلك كان صيدليا كما كان طبيبا، وينوه ابن أبي أصيبعة بكتابه في الأدوية المفردة وكيف كان يتعقبها ويسجلها إذ كان يصطحب معه مصورا ومعه الأصباغ والليقُ (جمع ليقة) على اختلافها وتنوعها وكان يتوجه إلى مواضع النبات في الشام مثل جبل لبنان وغيره مما به نبات يختص به، ويشاهد النبات ويحققه، ويُريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله، ويصوره. وسلك في تصوير النبات مسلكا فريدا، وذلك أنه كان يريه للمصّور في إبان بزوغه فيصوره، ثم يريه له في وقت اكتمال نموه وظهور بزره فليصوره تلو ذلك، ثم يريه له في وقت يبسه وذبوله فيصوره.وبذلك ينظر قارئ كتابه

---

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٦٦٢.

(٢) انظر في الدخوار ابن أبي أصيبعة ص ٧٢٨ وفوات الوفيات ٥٦٣/١ وألدوميلي ص ٣٢٠.

(٣) راجع في رشيد الدين ابن أبى أصيبعة ص ٦٩٩ وألدومييل ص ٣٢٠.

إلى النبات في أطوار نموه، حتى تتحقق له معرفته بدقة. ولسوء الحظ سقط هذا الكتاب الرائع من يد الزمن.

ويتوفى نجم [١] الدين اللبودي سنة ٦٦٦ وكان يتعمق بحوث الفلسفة والفلك وعلم الطب وروى له ابن أبي أصيبعة مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا شرح له على كتاب القانون في الطب لابن سينا ورسالة في مسائل فسيولوجية. ورعاه في الشطر الأول من حياته الملك المنصور إبراهيم بن أسد شريكوه صاحب حمص. وتقلب في البلاد ثم استقر بدمشق، وأسس بها مدرسة طبية وأخرى هندسية، إذ كان رياضيا بارعا كما كان طبيبا، وكانت له كتب في الحساب والجبر والمقابلة. وكان يعاصره ابن أبي أصيبعة [٢] الطبيب صاحب طبقات الأطباء الذي يتكرر ذكره في الهوامش، توفي سنة ٦٦٨ وقد ولد بدمشق وفي شبابه نزل القاهرة، وشُغف بالطب وتلقاه على كبار الأطباء المصريين، حتى برع فيه، واشتغل في البيمارستان الناصري مدة، ثم جذبه إليه أمير صرخد بفلسطين في الزمن الذي ذكرناه. زمن رعاة العلوم الآداب المتعددين من الأيوبيين، وأقام بها حتى وفاته، وكتابه الطبقات يحمل معارف واسعة عن المشتغلين بعلوم الأوائل: طب وغير طب حتى زمنه.

ونمضي إلى زمن المماليك،ويظل الاهتمام بعلوم الأوائل مطردا ويلقانا أبو الفرج يعقوب بن إسحق المشهور باسم ابن القف [٣] المتوفى بدمشق سنة ٦٨٥ وكان مسيحيا وهو تلميذ ابن أبي أصيبعة، وكان طبيبا حاذقا، واشتهر له كتابان: جامع الغرض في حفظ الحصة ودفع المرض، والعمدة في صناعة الراحة. وكان يعاصره ابن [٤] السويدي إبراهيم بن طرخان شيخ الأطباء والصيادلة بدمشق المتوفى سنة ٦٩٠ وهو تلميذ الدخوار، أخذ الطب عنه وله في الطب " التذكرة الهادية" وفي الصيدلة " الباهر في الجواهر" ذكر فيه كثيرين من العلماء الموثوق بهم في هذا الموضوع كالبيروني والرازي وأبي حنيفة الدينوري.ولابد أن نلاحظ أن كل هؤلاء الأطباء الذين ذكرناهم كان وراءهم عشرات في بلدان الشام المختلفة. ويفيض ابن أبى أصيبعة في الحديث عنهم، وأيضا

---

(١) انظر في اللبودي ابن أبي أصيبعة ص ٦٦٣ وخطط الشام لكرد على ٤٦/٤، ١٠٣/٦ وألدوميلي ص ٣٢١

(٢) راجع في ابن أبي أصيبعة النجوم الزاهرة ٢٢٩/٧ وابن كثير ٢٥٧/١٣ والشذرات ٣٢٧/٥ وألدوميلي ص ٣٣٠

(٣) انظر ابن أبي أصيبعة ص ٧٦٧ وألدوميلي ص ٣٢٢، ٣٢٦.

(٤) انظر في ابن السويدي قوات الوفيات ٥٤/١ والمنهل الصافي ١٢٤/١ وألدوميلي ص ٣١٩.

لابد أن نلاحظ أن كل هؤلاء الأطباء كانوا دارسن للفلسفة اليونانية وفروع العلم المختلفة من رياضيات وفلك وتنجيم، يصور ذلك أوضح تصوير ما يذكره لهم ابن أبي أصيبعة من مؤلفات تناول علوم الكيمياء والفيزيقا والرياضة والهيئة أو الفلك وقد مضت الأجيال في زمن المماليك تهل من موارد هذه العلوم واضعة نصب عيونها ممارسة الطب في البيمارستانات المنتشرة في بلدان الشام.

وممن نبغوا في الهندسة وعلم الفلك والرياضيات علاء الدين [١] بن الشاطر المقت في الجامع الأموي بدمشق وله كتاب في الزيج توفي سنة ٧٧٧ ومثله ابن [٢] الهائم الفرضي شهاب الدين المدرس بالقدس في المدرسة الصلاحية، وله كتب كثيرة في ميادين الحرب والحركات العسكرية نكتفي بأن نذكر منها كتاب بغية القاصدين في العمل بالميادين لمحمد بن لاجين الطرابلسي الرماح المتوفى سنة ٧٨٠ ألفه لصاحب حلب.

ومع ما أصاب الحركة العلمية في الشام من تدهور في أيام العثمانيين ظل دائماً بصيص من نورها يتراءى من حين إلى حين في الاهتمام بعلوم الأوائل وخاصة بالطب بلسم المرضى الشافي وأيضا بالفلك وفروعه، واشتهرت حينئذ تذكرة [٣] داوود الأنطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ للهجرة، وهي مهمة في وصف الأدوية والعقاقير والأمراض مع أن مؤلفها كان ضريرا، وله كتاب يسمى الكامل في الطب طبع مرارا.

---

(١) راجع في علاء الدين الشذرات ٢٥٢/٦ وألدوميلي ص ٥٥٣.

(٢) أنظر الضوء اللامع للسخاوي ج٢ رقم ٤٤٩ والشذرات ١٠٩/٧ وألدوميلي ص ٥٠٦، ٥١٣

(٣) راجع في داود الأنطاطي البدر الطالع للشوكاني ٢٤٦/١ وخلاصة الأثر ٦٤٠/٢ وألدوميلي ص ٤١٧. ٥١٣.

obeikandl.com

## (ب) علم الجغرافيا

من أقدم المرويات الجغرافية عن أهل الشام رحلات تنسب إلى بعض الصحابة من أهلها أو م ولاتها، من ذلك رحلة تنسب إلى تميم الداري الفلسطيني الأصل المتوفى حوالي سنة ٤٠ للهجرة، وهي رحلة بحرية قذفت به فيها عاصفة إلى جزيرة مهجورة في البحر المتوسط. ومن ذلك أيضا رحلة تنسب إلى عبادة بن الصامت والي حمص المتوفى سنة ٣٤ للهجرة، وهي رحلة برية إلى القسطنطينية. وذهب كراتشكو فسكي إلى أنهما قصتان ملفقتان بلح منحولتان [١]. وتلقانا مرويات أخرى مشابهة وجميعها لا تدخل في الجغرافيا بمعناها العلمي، إذ يتأخر هذا المعنى إلى عصر الترجمة والاطلاع على ما لدى الأمم الأجنبية من مصنفات جغرافية، ونفس الكلمة التي سُمى بها العلم كلمة يونانية، وأعجبهم من التراث اليوناني إلى أقصى حد كتاب المِجسطي لبطليموس، وأخذت تنشأ على هدية مدرسة جغرافية عربية منذ أواخر القرن الثالث الهجري. وإذا مضينا إلى النصف الثاني من القرن الرابع الهجري وجدنا القدس ينجب أهم جغرافي حتى زمنه، ونقصد المقدسي [٢] محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء البشاري، وجدّه أبو بكر البناء هو الذي بنى سور عكا وأبوابها لأحمد بن طولون. وقد طاف بأرجاء العالم الإسلامي فيما عد الهند وسجستان والأندلس، ودوّن معلوماته في كتابه " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " سنة ٣٧٥ وأعاد كتابته في سنة ٣٧٨ وعلى النسخة الأخيرة اعتمد ياقوت في معجمه الجغرافي. ويذكر في مقدمة كتابه أنه اعتمد على ثلاثة مصادر: المشاهدة أو المعاينة بنفسه، وما سمعه من الثقات، وما وجده في الكتب المصنفة، وابتع في وصفه لكل قطر منهجا ثابتا ذا ثلاث شعب: الشعبة الأولى تتناول أقسام القطر ومدنه ومواضعه العامرة، والشعبة الثانية تتناول المناخ والزرع والطوائف والفرق واللغة والتجارة والأوزان والنقود والعادات والمياه والمعادن والأماكن المقدسة وأخلاق السكان والتبعية السياسية للقطر والخراج، والشعبة الثالثة تتناول ذكر المسافات

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي (الترجمة العربية) ص ٥٣ وما بعدها.

(٢) انظر في المقدسي دائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان ٢٥٣/٤ وما بهما م مراجع ومقدمة كتابه حتى ص ٤٤ وتاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بورص ٨٢ والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لميتز ٤/٢ وألدوميلي ص ٢٢٧ كراتشكوفسكي ٢٠٨/١ – ٢١٥.

وطرق المواصلات. وهو يقدم معلومات مهمة عن العادات والمعتقدات والتجارة. ويبدأ القسم الأول في الكتاب بجزيرة العرف فالعراق فالجزيرة شمالية فالشام فمصر فالمغرب فبادية الشام. والقسم الثاني، جعله للمشرق، يبدأ ببلاد الهياطلة فخراسان فالديلم فأرمينيا ومعها أذربيجان فالبال فخوزستان ففارس فكرمان فالسند فمفازة فارس. أضاف إلى كتابه خريطة مثّل فيها الأقاليم وحدودها وخططها. ولم تصل إلينا خريطته، ويقول إنه أوضح فيها الطرق المعروفة بالحمرة والرمال الذهبية بالصفرة والبحار المالحة بالخضرة، والأنهار العذبة بالزرقة، والجبال المشهورة بالغبرة. وكان يتحرى الثقات ويسألهم عن بلدانهم كما صنع بالأندلس ومثل سؤاله بساحل عدن لشيخ كان أعلم الناس بالبحر الصيني. والكتاب يعرض البلدان الإسلامية التي زارها بكل مشاهدها حتى لكأنما يبصره قارؤه بكل سكانها ومعتقداتها وعاداتها، وهو لا يبارّي في عرضه لهذه المشاهد. ويتضح السجع أو النثر المقفي في مقدمته الطويلة وفي مواضع مختلفة من الكتاب مما يدل على أنه كان يحاول أن يختار لكتابه لغة أدبية مصقولة. وكان يعاصره المطهر [١] بن طاهر المقدسي، وهو مثله لا تعرف سنة وفاته، وله كتاب بدء الخلق والتاريخ كتبه سنة ٣٥٥ للهجرة وهو جمع غير منسق لمعارف كثيرة تتصل بالأديان والعقائد والتاريخ المتصل بالأنبياء والملوك والخلفاء حتى زمنه، وبه فصل جغرافي كتبه عن صفة الأرض ومبلغ عمرانها وعدد أقاليمها وصفة البحار الأنهار وعجائب الأرض والخلق، ويعرض للمساجد المشهورة. ونلتقي في النصف الأول من القرن الخامس بأبي الحسن علي [٢] بن محمد بن شجاع الربعي المالكي المتوفى سنة ٤٣٥ وله "كتاب الإعلام في فضائل الشام ودمشق وذكر ما فيهما من الآثار والبقاع الشريفة"

ويصبح موضوع فضائل بلدان الشام أساسيا منذ أواخر القرن الخامس الهجري حين استولى حملة الصليب على أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس، إذ هبّ الشاميون– والعرب معهم في كل مكان– يصرخون في وجوه حملة الصليب أن غادروا ترابنا الطاهر وأماكننا المقدسة. وأخذ الشعراء والعلماء يلّوحون في وجوههم، الشعراء بما يستطعيون أن يصوبوه من سهام الشعر، والعلماء بما يكتبون عن فريضة الجهاد

---

(١) انظر في المطهر بروكلمان ٦٢/٣ وكراتشكوفسكي ٢٢٤/١.

(٢) راجع في الربعي بروكلمان ٦٨/٦ وكراتشكوفسكي ٥٠٨/١.

لأعداء الإسلام. وانتظم الجغرافيون معهم يكتبون عن فضائل بيت المقدس والشام، وأول من تصدى لذلك من الجغرافيين المشرف [١] بن المرجي المقدسي الذي صنف بأخرة من القرن الخامس بعد استيلاء حملة الصليب على بيت المقدس سنة ٤٩٢ كتابه: " فضائل البيت المقدّس والشام" ليستثير حماسة الناس من حوله حتى يضربوا حملة الصليب الضربة القاضية ويطهروا أرض الشام الزكية من رجسهم. وفي نفس هذه اللحظة التاريخية ألاف أبو بكر [٢] بن محمد بن أحمد الواسطي سنة ٥٠٠ للهجرة كتابا عن " فضائل بيت المقدس". وأخذ يتوالى هذا النوع من الكتب حافزاً لسحق الصليبيين. وألف أبو القاسم على بن الحسن الشافعي المعروف بابن عساكر [٣] المتوفى سنة ٦٧١ تاريخ مدينة دمشق عرض فيه أسماء الأنبياء والعلماء والصالحين في ثمانين مجلدا، وممن كرهم من الأنبياء سليمان وشعيب. كل ذلك ليحيط مدينته بهالة قدسية كي يدافع عنا أبناؤها والعرب ضد حملة الصليب حتى الذماء الأخير. ويستولي صلاح الدين على بيت المقدس- كما مر بنا- سنة ٥٨٣ بعد أن حطم حملة الصليب ودمرهم في حِطّين تدميرا لم يكد يبقى منهم ولا يذر. وتكون لذلك فرحة ما بعها فرحة في نفوس المسلمين. ولا يكاد يمضى على ذلك ثلاثة عشر عاما حتى نجد ابن هذا الحافظ المؤرخ الكبير المسمى باسم القاسم [٤]، وكان يشتغل بالوعظ في دمشق، يذهب بنفسه إلى بيت المقدس سنة ٥٩٦ ليقرأ على الناس هناك كتابه: " الجامع المستقصى في فضائل المسجد الأقصى".

ويلقانا على [٥] الهروي السائح المتوفى بلب سنة ٦١١ وكان قد أكثر من التجوال والترحال لزيارة أضرحة الأولياء في الشام وغير الشام، وكان قد ألقى عصا تسياره بحلب وألف كتابه " الإشارات إلى معرفة الزيارات" واصبح له نفوذ كبير عند الملك

---

(١)انظر في المشرف بروكلمان ٧٣/٦ وكراتشكوفسكي ٥٠٨/١ وما بعدها.

(٢)راجع كراتشكوفسكي ٦٩/١.

(٣)انظر في الجغرافي المؤرخ الحافظ ابن عساكر معجم الأدباء ٧٣/١٣ وخريدة القصر (قسم شعراء الشام) ٢٧٤/١ والمنتظم ٢٦١/١٠ ومرآة الزمان ٣٣٦/٨ وتذكرة الحفاظ ١٣٢٨/٤ وعبرا لذهبي ٢١٢/٤ ومرآة الجنان ٣٩٣/٣ وطبقات الشافعية للسبكي ٢١٥/٧ وابن خلكان ٣٠٩/٣ وشذرات الذهب ٢٣٩/٤ والنجوم الزاهرة ٧٧/٦ والبداية والنهاية ٢٩٤/١٢.

(٤) انظر في القاسم بن عاسكر طبقات الشافعية ٣٢٥/٨ والنجوم الزاهرة ١٨٦/٦ وتذكرة الحفاظ ١٣٦٧/٤ والعبر ٣١٤ وشذرات الذهب ٣٤٧/٤ وكراتشكوفسكي ٥٠٩/٢.

(٥) راجع في الهروي ابن خلكان ٣٤٦/٣ والشذرات ٤٩/٥ وكراتشكوفسكي ٣٢٠/١.

obeikandl.com

الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب، فشيد له مدرسة بظاهر حلب، وهي صورة من صور رعاية أمراء البيت الأيوبي في الشام لا لعلماء بلدهم فحسب، بل أيضا بمن ينز بها من جِلّة العلماء، حتى ليبنون لهم المدارس ليحاضروا فيها الطلاب. ونلتقي بعثمان [١] النابلسي المتوفى حوالي سنة ٦٤٥ وله كتاب " لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية" وهو فيه يستمد من كتاب " قوانين الدواوين " لابن مماتي وعُين حاكما لمحافظة الفيوم فكتب عنها كتابا تاريخيا جغرافيا سماه " إظهار صنعة الحي القيوم في ترتيب بلاد الفيوم " ويؤلف [٢] ابن شداد المتوفى سنة ٦٨٤- هو غير بهاء الدين بن شداد صاحب سيرة صلاح الدين- كتابا بديعا سماه الأعلاق الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة نُشر منه جزآن عن دمشق وحلب. وهو يعطي بيانات دقيقة عما في البلدين من المساجد والخانقاهات والمزارات والحمامات، وقد رجعنا إليه مرارا في حديثنا عن الحركة العلمية.

وتأخذ الكتب الجغرافية المليئة بالعجائب والغرائب في الظهور. ونقرا منها كتاب نخبة الدهر في عجاب البر والبحر لشمس [٣] الدين محمد بن أبي طالب الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٧ وكان إماما لمسجد الربوة بدمشق، والكتاب يفيض بمعلومات كثيرة تدخل في التاريخ الطبيعي وما يتصل به من نباتات البلدان شرقا وغربا وحيواناتها ومعادنها، وللشام أو بعبارة أدق لسوريا وفلسطين نصيب جغرافي كبير، وألحق به بعض الخرائط وفقدت منه.

وكان حملة الصليب قد خرجوا نهائيا من الشام، فكان من الطبيعي أن يعني إبراهيم [٤] بن الفركاح المتوفى سنة ٧٢٧ بتأليف كتابيه "الإعلام بفضائل الشام" و "باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس". ويلقانا أبو الفداء الملك المؤيد [٥] إسماعيل

---

(١) انظر عثمان النابلسي في كراتشكوفسكي ٣٤٩/١.

(٢) انظر في عزي الدين بن شداد تاريخ ابن الفرات (طبع بيروت) ٣٣/٨ والبداية النهاية ٣٠٥/١٣ وشذرات الذهب ٣٨٨/٥ وكراتشكوفسكي ٣٦٩/١.

(٣) راجع شمس الدين الدمشقي في كراتشكوفسكي ٣٨٦/١.

(٤) انظر ابن الفركاح في الدرر ٣٥/١ والشذرات ٨٨/٦ وكراتشكوفسكي ٥١٠/٢.

(٥) راجع الملك المؤيد في فوات الوفيات ٢٨/١ والدرر ٣٩٦/١ وطبقات الشافعية ٤٠٣/٩ والبداية والنهاية ١٥٨/١٤ وتاريخ ابن الوردي ٢٩٧/٢ والنجوم الزاهرة ٢٩٢/٩ وكراتشكوفسكي ٣٨٩/١.

openkanar.com

الأيوبي صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ ويشتهر بكتابين في التاريخ والجغرافيا، ويهمنا الثاني وعنوانه " تقويم البلدان" وهو كتاب جغرافي للعالم في زمنه، وقد ظل أهم كتاب جغرافي عربي حتى العصر الحديث، ودائما يذكر مصادره كأحدث الكتابات الجغرافية، ويؤلف شهاب [١] الدين القدسي المتوفى سنة ٧٦٥ كتابه " مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام "، ويلقانا عمر [٢] بن الوري المتوفى سنة ٨٥٠- وهو غير زين الدين بن الوردي المتوفى قبله بقرن- وله كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب، وهو مع وصفه الجغرافي للبلاد والأرض والبحار يعني بالقصص الغريبة، وقد جلبن منه قصصا طريفة في كتابنا "عجائب وأساطير" ويؤلف عبد [٣] الرحمن العليمي المتوفى لأوائل زمن العثمانيين سنة ٩٢٨ كتابه" الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل". وتكثر أيام العثمانيين كتب الرحلات والفضائل وتقل قلة شديدة الكتب الجغرافية بمعناها الدقيق. وربما كان أكثر أهل الشام حينئذ نشاطا في الكتابة عن دمشق ومساجدها ومدارسها ومواضع أحيائها وضواحيها ومزاراتها ابن [٤] طولون الصالحي المتوفى سنة ٩٥٣ وله في ذلك رسائل متعددة، وله أيضا وصف للطريق من الشام إلى مكة باسم "منازل الحج الشامي" ويكثر وصف الرحلات إلى القسطنطينية، وبدأها بدر [٥] الدين محمد الغزي المتوفى سنة ٩٨٤ بكتابه "المطالع البدرية في المنازل الرومية" وتلاه محمد [٦] بن أحمد سكيكر المتوفى سنة ٩٨٧ للهجرة بوصف رحلته من حماة إلى القسطنطينية في كتابه "زبدة الآثار فيما وقع لجامعه من الأسفار". ونلتقي برحلات متعددة إلى مصر، مثل "حاوي الأظعان النجدية إلى الديار المصرية" لأحمد [٧] بن داود الحموي المتوفى سنة ١٠١٦ ووصف محمد [٨] بن أحمد بن حافظ الدين القدسي المتوفى سنة ١٠٥٥ زياراته لدمشق

---

(١) انظر في شهاب الدين الدرر ٢٥٧/١ وكراتشوفسكي ٥١١/٢.

(٢) راجع في عمر بن الوردي ابن إياس ٦٠/٢ و كراتشوفسكي ٥٠٠/٢ ودائرة المعارف الإسلامية.

(٣) انظر العليمي في كراتشوفسكي ٥١٥/٢.

(٤) انظر في ابن طولون ترجمة شخصية له طبعت بدمشق بعنوان: الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون وراجع الكواكب السائرة ٥٢/٢ وشذرات الذهب ٢٩٨/٨ و كراتشوفسكي ٦٨١/٢ وما بعدها.

(٥) انظر كراتشوفسكي ٦٨٥/٢.

(٦) راجع كراتشوفسكي ٦٨٧/٢.

(٧) انظر كراتشوفسكي ٦٩٠/٢.

(٨) راجع كراتشوفسكي ٦٩٢/٢.

والقدس والقاهرة في كتابه "إسفار الأسفار في أبكار ألافكار" كتبه بلغة مسجوعة بها غر قليل من التكلف. ولعبد الغني النابلسي الصوفي الذي سنترجم له فما بعد المتوفى سنة ١١٤٣ أربع رحلات إلى طربلس وبعلبك القدس ومصر. وربما كان أهم من جاءوا بعد ذلك في زمن العثمانيين أحمد [١] المنيني الطرابلسي المتوفى سنة ١١٧٢، وكان مدرسا بالجامع الأموي، وله كتاب "الإنعام (أو الإعلام) بفضائل الشام وهو شارح السيرة المشهورة التي ألفها العتبي للسلطان محمود الغزنوي.

(١) انظر في المنبني سلك الدرر للمرادي ١٣٣/١ و كراتشوفسكي ٧٥٧/٢.

obeikandl.com

٣

# علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة

أخذت الشام تُغنى بتعلم العربية منذ وضع فيها العرب أقدامهم حتى تحسن النطق بالذكر الحكيم، وبمجرد أن تحولت مقاليد الخلافة إلى معاوية وأصبحت دمشق عاصمة الدولة الإسلامية ازدادت الرغبة حتى عند المسيحيين في معرفة العربية لغة الحاكم وإدارته الجديدة. وحقا كانت الشام قد أخذت في التعرب قبل الإسلام، ولكن كان لا يزال بها كثيرون لا يعرفون العربية، بل قل إن الكثرة كانت لا تعرفها، وكان الذين اعتنقوا الإسلام شغوفين بالتزود منها، ويمكن أن نتخذ مما ينسب إلى عبيد بن شرية ليس معاوية ومحدثه بأخبار الأمم السالفة من أنه وضع للناس كتابا في الأمثال [١] رمزا لتلبية هذا الشغف عند أهل الشام، ولباه أيضا في أيام يزيد بن معاوية أخباري يسمى علاقة بن كريم الكلابي فوضع للناس كتاباً ثانياً في الأمثال [٢] والحكم. وأخذ ينشأ حينئذ معلمون يعلمون الناس العربية، كانوا يسمون باسم المؤدبين، ولم تهتم الكتب بإعطاء بيانات عمن كانوا يعلمون العامة منهم، ولا شك أن كثرتهم كانت من قراء الذكر الحكيم، حتى يحسن القارئ تلاوته، أما من كانوا يعلمون الخاصة من أبناء الخلفاء وأمراء البيت الأموي فزودتنا المصادر ببعض أسمائهم، ومنهم عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب [٣] أولاد عتبة بن أبي سفيان، وهو أيضا مؤدب [٤] الوليد بن يزيد ويقال إنه هو الذي دفعه إلى المجون، إذ كان زنديقاً ماجناً. وكان معبد الجهني مؤدبا [٥] لسعيد بن عبد الملك، واتخذ هشام بن عبد الملك في خلافته الزهرى المحدث مؤدباً [٦] لأبنائه.

---

(١) الفهرست ص ١٣٢

(٢)الفهرست ص ١٣٢ ونسب ابن النديم كتابا في الأمثال لصحار العيدي معاصر معاوية.

(٣) البيان والتبيين ٢٥٢/١.

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٣/٧ ولسان الميزان لابن حجر ٤ /٢١.

(٥) البيان والتبيين ١ /٢٥١.

(٦) بروكلمان (الطبعة العربية بدار المعارف) ١ /٢٥٤.

ومضت الشام طوال القرنين الثاني والثالث تُغني بتعلم العربية وإتقان الناشئة لها وقيام أمثال من سميناهم على تعليمها من المؤدبين والمعلمين. ويبدو أنهم كانوا يعدون تلاميذهم إعدادا واسعاً، يدل على ذلك أن شاعرين ممن خرجوهما- تخرج أولهما وهو أبو تمام في الربع الأخير من القرن الثاني وتخرج الثاني في أوائل القرن الثالث وهو البحتري- وضعا أقيم مجموعتين من اختيارات الشعر حتى زمانهم، وسمّى كل منهما مجموعته باسم الحماسة على نحو ما هو معروف. وكانت بغداد- مركز الخلافة- تجذب إليها بعض هؤلاء المؤدبين، كان الخلفاء يتخذون منهم أحيانا مؤدبي أبنائهم، مثل أحمد بن سعيد الدمشقي وكان مؤدبا لأبناء الخليفة المعتز واختص بتخريج عبد الله بن المعتز الشاعر المشهور. ويبدو أن علماء اللغة في الشام لم يستلقوا عن علماء النحو إلى حقب متطاولة، بمعنى أن عالم اللغة والنحو كان واحدا، وكان يؤلف في الميدانين معا، وقد يكون شاميا أصيلا وقد يكون من نزلاء الشام.

وأول نحوي ولغوي كبير نلتقي به في الشام الزجاجي [1] عبد الرحمن بن إسحق، كان قد لزم الزجّاج العالم النحوي ببغداد، فنُسب إليه، ونزل الشام فأقام بحلب مدة ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها يعلّم كتابه الجمُل، وهو كتاب بارع في تعليم الناشئة، وظل يُدرس بعده في مصر والمغرب والحجاز واليمن فضلا عن الشام مددا متطاولة لوضوح عبارته ودقة تبويبه، وله أمال تزخر بالمعارف اللغوية وهي منشورة، وله في علل النحو كتاب نفيس سماه الإيضاح وهو أقدم كتاب تناول هذا الموضوع تناولا مفصلا دقيقا، نشره الدكتور مازن مبارك مع مقدمة لي تحليلية. وقد ترجمت للزجاجي في كتابي " المدارس النحوية" وأوضحت انه من مؤسسي المدرسة البغدادية التي تعتمد على الآراء النحوية البصرية وتضم إليها بضع الآراء النحوية الكوفية مع النفوذ إلى آراء جديدة. وخرج في سنة ٣٤٠ مع عامل الضياع الإخشيدية- إذ كانت الشام حينئذ تتبع الإخشيد- إلى طبرية فتوفي بها.

وكانت حلب قد أخذت تنافس بغداد في النهضة الفكرية، إذ بعث فيها سيف الدولة- كما مرّ بنا في غير هذا الموضع- حياة أدبية وعليمة باهرة بما جمع في

---

(١) انظر في الزجاجي إنباه الرواة ١٦٠/٢ وابن خلكان ١٧٦/٣ وكتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ٢٥٢ و بروكلمان ٢ /١٧٣.

بلاطه من الفلاسفة مثل الفارابي والمترجمين مثل عيسى النفيسي والأطباء مثل أبي القاسم الرقي. وكان للغة والنحو حظ وافر من العلماء، إذ كان بحلب حينئذ أبو الطيب [١] عبد الواحد اللغوي، وله كتاب مراتب النحويين وكتاب في الأضداد، غير كتب لغوية أخرى. ونزل حلب ابن خالوية [٢] اللغوي النحوي واتخذه سيف الدولة مؤدبا لأبنائه، وله في اللغة كتاب الاشتقاق وكتاب المقصور والممدود وكتاب المذكر والمؤنث وله في النحو كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن العزيز وطبعته دار الكتب المصرية، وله كتاب في القراءات منشور، وعنى بدراسة لغة العامة لأيامه ومن اجل ذلك ألف كتابه " ليس " في كلام العرب، وعقب عليه الحافظ المصري مغلطاي في مواضع وسمى كتابه " الميس على ليس " ويريد بالميس الاختيال. وكان ينزع في آرائه منزع الكوفة وتوفي بحلب سنة ٣٧٠.وبجانب ابن خالوية وأبي الطيب اللغوي كانت هناك طائفة من نحاة أقل شهرة مثل أحمد بن البازيار وأحمد السمسياطي وعلى بن محمد العدوى وعبد [٣] الله بن عمرو الفياضي، وكان معهم النامي الشاعر، وكان سيف الدولة يعجب بشعره، وبدا حيات نحويا في بلدته المصيصة، ثم تحول شاعرا، وكانت له إملاءات لغوية ونحوية بحلب والتف حوله كثيرون من التلاميذ.

وكان كُشاجم على شكالة النامي لغوياً وشاعراً وله كتاب المصايد والمطارد وهو منشور، وكان له كتاب في البيزرة وكتاب ثان في أب النديم. ومثله كان الخالديان: عثمان وأخوه أبو بكر محمد، ولها تصانيف في الشعر والشعراء مثل كتاب الحماسة وأخبار أبي تمام وأخبار ابن الرومي. ولمع حينئذ في سماء حلب كوكبان نحويان لغويان كبيرا هما أبو علي الفارسي وتلميذه ابن جنى. وقد تحدثنا عن نشاطهما اللغوي والنحوي في كتابنا " المدارس النحوية" ويهمنا هنا أن نذكر أن ابن جنى لزم المتنبي في بلاط سيف الدولة وبعد ذلك في بغداد وإيران وروى عنه ديوانه وشرحه شرحين، صغير مختصر وكبير مطول وعلى أساسهما بُنيت شروحها فيما بعد. وأهم من شرحه بعده من أهل الشام أبو العلاء المعري، وله عليه شرحان: بير ومتوسط وهما معجز أحمد

---

(١) راجع في أبي الطيب مقدمة الناشر لكتابه مراتب النحويين وبغية الوعاة وبروكلمان ٢ /٢٤٢.

(٢) انظر في ابن خالوية إنباة الرواة ٣٢٤/١ وابن خلكان ١٧٨/٢ ومعجم الأدباء ٩ /٢٠٠ ويتيمة الدهر ١ /٨٨ وطبقات الشافعية للسبكي ٣ /٢٦٩.

(٣) انظر كتاب (أبو الطيب المتنبي) ترجمة الدكتور الكيلاني ص ٢٢٨.

واللامع العيز سماه بهذا الاسم لأنه قدمه إلى عزيز الدولة ثابت [١] بن ثمال بن صالح بن مرداس سنة ٤٣٤ وربما كان يتولى المعرة حينذاك. وي ذلك ما يشير إلى ما قلناه مرارا من أن حكام الإمارات والممدن كانوا رعاة للعلم والأدب، ولعل فيه ما يشير أيضا إلى أن بنى مرداس الين خلفوا الحمدانيين وظلوا حكاما على إمارة حلب من سنة ٤١٥ إلى سنة ٤٦٧ أعادوا لها ذكرى الحركة الفكرية التي بعثها فيها سيف الدولة الحمداني وأسرته.

ولعل بلدًا عربياً لم يظفر بما ظفرت به الشام في أبي العلاء الشاعر اللغوي العبقري المولود سنة ٣٦٣ والمتوفى سنة ٤٤٩للهجرة وقد استوعب كل تراث زمنه من العلوم اللغوية والشرعية وعلوم الأوائل واستظهر ذلك كله في أشعاره وفي رسائله وكتاباته النثرية وكان للغة وغرائبها الخط الأكبر، وكأن ليس هناك شاذة ولا شاردة لغوية إلا سلكها في أشعاره ورسائله. ولذلك كان يفرد دائماً شروحا لغوية لأعماله، وقد افرد لديوانه سقط الزند شرحاً سماه ضوء السقط وهو منشور، وأفرد للروميات شرحا سقط من يد الزمن، ويقال إنه كان في مائة كراسة، وأفرد للفصول والغايات وهي في الزهد والعظات شرحاً، أنشأه في غريبها وسماه " السادن" كان في عشرين كراسة. ولعل في ذلك ما يشير إلى أنه كان ينبغي في نشر هذا الكتاب إفراد الشرح عنه متنه، وكان قد وضع في غاياته شرحا سماه إقليد الغايات مقداره عشر كراريس كان ينبغي أيضا أن يُفرد عنه شرح غاية أو قافية كل فصل من فصوله. وهذا نفسه يلاحظ في رسالته البديعة: رسالة الغفران، فقد نشرت مع شرح يتخللها وينتظم في تضاعيفها، وكان ينبغي أن ينحّى عنه ويوضع في هوامشها بحيث يكون لها هوامش من إملاء أبي العلاء وهوامش أخرى خاصة بالتحقيق. ومثلها رسالة الصاهل والشاحج التي كتبها على لسان فرس وبغل ك فقد أبتعها بشرح سماه " لسان الصاهل والشاحج". وقد نشرتها هي ورسالة الغفران الدكتورة بنت الشاطئ، ويقال إنه قدم رسالة الصاهل والشاحج لعزيز الدولة فاتك الذي كان والياً للفاطميين على حلب [٢] من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٣ وقدم

(١) راجع إنباه الوراة ١ /٦٥ وانظر معجم الأدباء ٣ /١٦٢.

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٣١

رسالته السّندية إلى والي حلب الذي خلف فاتكا: سند [١] الدولة بن عثمان الكُتامي. ولعل في الرسالتين ما يشير إلى أن ولاة الفاطميين في المدة القصيرة التي تبعت فيها حلب القاهرة من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٥ كانوا يرعون الأدباء والعلماء بها، وبالمثل في البلدان الشامية الأخرى التي كانت تتبع القاهرة قبل استيلاء السلاجقة عليها وقبل استيلاء حملة الصليب. وعمل أبي العلاء اللغوي لم يقتصر على ما أنتج شعر ونثر فقد مر بنا أنه شرح ديوان المتنبي وبالمثل شرح ديوان أبي تمام حبيب بن أوس وسماه ذكرى حبيب وشرح ديوان البحتري وسماه عبث الوليد. وشرح من كتب اللغة فصيح ثعلب. وكان طلابه وتلاميذه اللذين يتحلقون حوله يقرءون عليه كتبا لغوية مختلفة ويثبتون على نسخهم تعليقاته، من ذلك كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت وكتاب غريب الحديث لأبي عبيد. ويروى أنه ألف في النحو كتابا سماه النافع وكان في خمسة كراريس ولعله صنفه للناشئة. وفي الحق أنه كان إماماً كبيراً في اللغة، ويقول عنه تلميذه التبريزي: " ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعري " [٢] ويعدد الصفدي من رُزقوا السعادة في أشياء لم يأت بعدهم من نالها ويذكر منهم أبا العلاء في الاطلاع على اللغة. ويقول الذهبي: كان أبو العلاء عجبا في الاطلاع الباهر على اللغة وشواهدها" [٣] ويقول ابن فضل الله العمري: " كان أبو العلاء مطلعا على العلوم لا يخلو في علم من الأخذ بطرف، متبحرًا في اللغة، متسع النطاق في العربية [٤] ". وإذا عرفنا أن هذا الإمام اللغوي الكبير لم ينشأ في مدن الشام الثلاث الكبرى: حلب أو دمشق أو بيت المقدس، وإنما نشأ في بلدة المعّرة الصغيرة القريبة من حلب، وأخذ العربية واللغة من علماء منها كبني كوثر [٥] ومن يجرى مجراهم من تلامذة ابن خالوية وطبقته، إذا عرفنا ذلك اتضح لنا النشاط اللغوي والنحوي الكبير الذي كان مبثوثا لا في مدن الشام الكبرى فحسب، بل أيضا في مدنها وبلدانها الصغرى.

---

(١)تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٣٤

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٣.

(٣) تعريف القدماء ص ١٩٠.

(٤)تعريف القدماء ص ٢٦٨.

(٥) إنباة الرواة ١ /٤٩.

وفي كتب التراجم نحاة مختلفون كانوا يدرسون اللغة والنحو ويعلمونهما للناشئة ومن تجاوزا سن الناشئة نذكر منهم في زمن أبي العلاء، أحمد [١] بن عبد الرحمن الطرابلسي ويذكر مترجموه أنه كان لا يزال حيا يعلم ويدرس سنة ٤١٣ لطلابه بطرابلس إلى أن وافاه بها القدر. وكان يعاصره عالي [٢] بن أبي الفتح بن جني المتوفى سنة ٤٥٢ وكان يعلم العربية في صور وصيداء ونلتقي من شراح المتنبي بالوأواء [٣] الحلبي اللغوي المتوفى سنة ٥٥١ وهو غير الوأواء الدمشقي شاعر سيف الدولة، كما نلتقي في شيزر بمرهف بن أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٦١٣ وله شرح [٤] على ديوان المتنبي، وتوفي معه في نفس السنة أبو اليمن التاج الكندي زيد [٥] بن الحسن نحوي دمشق المشهور. وتزدهر الدراسات اللغوية والنحوية في الشام أثناء القرن السابع الهجري، ويلقانا أعلام ثلاثة كان لكل منهم شطر في هذا الازدهار، أولهم يعيش [٦] بن علي بن يعيش الحلبي الدار والمولد، ولد بحلب سنة ٥٥٦ للهجرة وأكب في نشأته على تعلم العربية وأخذها عن نحاة موطنه، ولم يكتف بذلك فقد رحل إلى بغداد ثم دمشق يأخذ عن شيوخهما، وعاد إلى حلب يعلم العربية حتى وفاته سنة ٦٤٣ وكان يقرأ على طلابه بعض كتب ابن جني ويشرحها مثل اللمع والتصريف، وأهم من شرحيه عليهما شرحه على كتاب المفصل للزمخشري وهو منشور في عشر مجلدات استقصى فيه آراء النحاة من بصريين وكوفيين وبغداديين، ويكثر من انتصاره للبصريين وقلما يستحسن آراء الكوفيين، وكثيراً ما يؤثر آراء البغداديين من أمثال أبي على الفارسي، وهو بذلك يُسلك في المدرسة البغدادية التي كانت تجمع في مصنفاتها بين آراء النحاة البصريين والكوفيين وتنفذ إلى آراء جديدة في هذه المسألة أو تلك، وفي كتابنا "المدارس النحوية" توضيح كاف لمنهج ابن يعيش في النحو واختياره لآراء النحاة فيه من بصريين وكوفيين وبغداديين.

---

(١) راجع ترجمة الطرابلسي في إنباة الرواة ١ /٨٦

(٢) انظر إنباه الرواه ٢ /٣٨٥

(٣) انظر في الوأوا الحلبي إنباه الرواة ٢ /١٨٦

(٤) بروكلمان ٢ /٩٠

(٥) ستذكر مصادر ترجمته بين القراء.

(٦) راجع في ترجمة ابن يعيش ابن خلكان ٤٦/٧ وابن الودري ١٧٦/٢ والشذرات ٢٢٨/٥ وبغية الرعاة ص ٤١٩.

openkanal.com

والعلم الثاني لم يكن شامياً بل مصرياً، ومنذ العصر الأيوبي كان علماء الشام ومصر يتبادلون التدريس والتعليم في البلدتين، وكثيراً ما درس وعلم جلة العلماء الحلبيين والدمشقيين والمقدسيين في مدارس القاهرة ومساجدها مثل يحيي بن معطي المتوفى بمصر سنة ٦٢٨ وقد وضعناه بين نحاتها المصريين. وكثيراً ما نزل ببيت المقدس ودمشق وحلب مصريون واستوطنوها وأمضوا حياتهم هناك يعلمون ويدرسون ويفيدون، لا علماء النحو فحسب بل جميع العلماء من كل فرع من فروع العلم. وكان العلم المصري النحوي الذي نزل الشام ابن الحاجب [١] عثمان بن عمر المتوفى سنة ٦٤٦ وهو مذكور بين النحاة في القسم المصري. ويهمنا هنا أن نعرف أنه حين أحس نضجه العلمي رحل إلى دمشق وكان مالكيا، فنزل بزاوية المالكية في جامعها الأموي، وأخذ يدرس لطلابه هناك كتابيه الرائعين في النحو والتصريف: الكافية والشافية، وأملى شرحين لهما. وتوالت بعده لنفاستهما الشروح عليها بين عربية وفارسية حتى بلغت على الكافية- كما استقصاها بروكلمان- سبعة وستين شرحا، وعلى الشافية- ستة وعشرين. وظل ابن الحاجب طويلا في دمشق وطلاب العربية مكبون عليه حتى دخلت سنة ٦٣٩ وتحالف الملك الصالح إسماعيل مع حملة الصليب ضد ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب وتنازل لهم عن صفد وقلعة شقيف، وجاء ابن الحاجب نبأ الكارثة، وكان يخطب الجمعة في المسجد الأموي، وكان إسماعيل قد ملك دمشق برهة، وغلا الدم في عروقه فقطع اسم الملك إسماعيل من الخطبة معلنا بذلك احتجاجه على عمله المزري، وردّ عليه إسماعيل بإبعاده إلى موطنه، فعاد إلى القاهرة وتركها إلى الإسكندرية وبها توفي سنة ٦٤٣.

والعلم الثالث لم يكن مصريا ولا شاميا، بل كان أندلسيا، وهو ابن [٢] مالك محمد بن عبد الله، ولد ونشأ وعكف على دراسة اللغة والنحو في بلدته جيان، حتى إذا شعر باكتمال تكوينه العلمي رحل سنة ٦٣٠ وهو في الثلاثين من عمره إلى دمشق، وظل مدة في حلب يأخذ عن ابن يعيش. ثم عاد إلى دمشق واستوطنها متوليا بها مشيخة المدرسة العادلية، ولم يلبث أن طار صيته في آفاق الشام، فقصده الطلاب من كل فجّ،

---

(١) انظر في ابن الحاجب ابن خلكان ٢٤٨/٣ وبان فرحون ص ٣٧٢ وبروكلمان ٣٠٨/٥ والمدارس النحوية ص ٣٤٣.
(٢) انظر في ابن مالك ومصادره، كتابنا المدارس النحوية ص ٣٠٩ وبروكلمان ٢٧٥/٥- ٢٩٦.

وكان يحسن إلى أبعد حد نظم الشعر العلمي فنظم في النحو ألفيته المشهورة، وتوالت بعده شروحها حتى بلغت تسعة وأربعين شرحا، غير ما على بعض شروحها من حواش. وألف في النحو بجانبها كتابه التسهيل وله عشرة شروح، وله في الصرف لامية ألافعال ولها أيضا عشرة شروح، وتحفه المودود في المقصور والممدود، وإيجاد التعريف في علم التصريف. وبلغت مصنفاته نحو ثلاثين مصنفا بين منظوم ومنثور، وأوضحت في كتاب المدارس النحوية منهجه في النحو وأنه كان منهجا بغداديا مع ميله لاستخدام بعض الرخص الكوفية، وسنعود إلى الترجمة له ترجمة أكثر تفصيلا في السفر الخاص بالأندلس والمغرب إذ عداده حقا إنما هو في الأندلسيين.

وتظل دراسات اللغة والنحو في الشام بعد هؤلاء الأعلام الثلاثة مزدهرة، ويظل التبادل فيها موصولا بين علماء الشام ومصر طوال أيام المماليك ونذكر من نحاة الشام ولغوييها الذين تكونوا في موطنهم ثم نزلوا القاهرة ودرّوا النحو واللغة فيها للطلاب بهاء الدين بن النحاس الحلبي المولود سنة ٦٢٧ سمع مواطنه ابن يعيش وتلقى عنه العلم ثم بارح حلب إلى القاهرة والتفّ الطلاب حوله وصار شيخ العربية بالديار المصرية حتى توفي سنة ٦٩٨ ويُنسب له شرح على ديوان امرئ القيس نشره الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم مع مجموع شروح الديوان بدار المعارف. ومن هؤلاء اللغويين والنحاة المستوطنين لمصر ابن الصائغ [٢] محمد بن الحسن المولود بدمشق سنة ٦٤٥ نزل القاهرة وأقام بها يقرئ الناس العربية وكان شاعرا كما كان لغويا، وله شرح على مقصورة ابن دريد وشرح على ملحة الحريري ومختصر لصحاح الجوهري جرذده فيه من الشواهد، توفي بالقاهرة سنة ٧٢٢. ومن أهم هؤلاء النحاة المهاجرين من الشام إلى مصر وأشهرهم بهاء [٣] الدين بن عقبل عبد الله بن عبد الرحمن الحلبي الأصل والمولد، وقد لزم شيوخ الفقه الشافعي والحديث والعربية بمصر يأخذ عنهم، وخاصة النحوي الكبير ابا حيان، وألاف شرحه المشهور على الألفية ويمتاز بالوضوح ونصاعة العبارة، ولذلك عُنى به الشراح فشرحوه مرارا وله شرح على كتاب التسهيل لابن مالك،

---

(١) راجع ابن النحاس فوات الوفيات ٣٥٠/٢ وبغية الوعاة ص ٦ والذرات ٥ /٤٤٢.

(٢) انظر في ابن الصائغ فوات الوفايت ٣٨٠/٢ والبداية والنهاية ١٤ /٩٨ والنجوم الزاهرة ٢٤٨/٩.

(٣) راجع في ترجمة ابن عقيل الدرر الكامنة ٣٧٢/٢ والبغية ص ٢٨٤ وكتابنا المدارس النحوية ص ٣٥٥.

وظل يشتغل بالتدريس في مدارس متعددة حتى توفى سنة ٧٦٩. وإنما أردنا بذكر اللغويين والنحويين الشاميين النازلين بالقاهرة إلى أن ندل من جهة على أن التبادل العلمي بين القاهرة والشام في النحو ظل طوال زمن المماليك نشيطا، وظلت دراساته حية قوية إلى أبعد حد، وتتوالى أمامنا تراجم كثيرة طوال القرن التاسع الهجري نقرأ فيها أن هذا الشيخ أو ذاك أن بارعا في القراءات أو في الفقه وأصوله وأيضاً في العربية، ولم تكن توجد بلدة لا في الشام فحسب بل أيضا في كل العالم العربي إلا وهي تعني بدراسة اللغة والنحو. وظل كثيرون من شيوخ العربية يضعون الشروح لطلابهم على كثير من متون النحو ومختصراته.

ونمضي إلى زمن العثمانيين وتظل دراسات العربية بالشام نشيطة، إذ لا يستقيم لسان الناس وتلاوتهم للذكر الحكيم بدونها، بل لقد ظلت جميع الدراسات العلمية وانبرى لها علماء في كل الفروع يدرسونها للطلاب دراسة مرتبة مفصلة، وأخذ النحو نصيبه من ذلك فظهر فيه علماء نابهون في مقدمتهم الشيخ ياسين [١] بن زين الدين العليمي المتوفى سنة ١٠٦١ للهجرة، وله حاشية على شرح التصريح للشيخ خالد الأزهري المصري، وهو شرح على التوضيح أو أوضح المسالك لابن هشام. والحاشية تدل بوضوح على أن الشيخ ياسين لم يكد يترك كتابا من كتب النحو الكبرى التي تجمع آراء النحاة من بصريين وكوفيين وبغداديين وأندلسيين ومصريين حتى زمنه من مثل همع الهوامع للسيوطي والمغني لابن هشام وارتشاف الضّرب (عسل النحو) لأبي حيان. بل لقد أمعن في قراءة النحو عند ابن يعيش، وتجاوزه إلى من سبقوه، من أئمة المذاهب النحوية، بحيث تحول بحاشيته إلى ما يشبه موسوعة نحوية كبرى، فإذا قلنا إن الدراسات النحوية واللغوية بالشام في زمن العثمانيين كانت لا تزال نشيطة تخفق بغير قليل من الحيوية لم نكن مبالغين.

وإذا تركنا النحو واللغة إلى مباحث البلاغة والنقد وجدنا شعراء الشام متصلين اتصالا وثيقا بالتطور الذي حدث في الشعر لأول أيام بني العباس وما اصطنعه فيه الشعراء من المحسنات المعنوية واللفظية مما سمى فيما بعد باسم البديع، ويلاحظ ذلك

---

(١) انظر في الشيخ ياسين خلاصة الأثر للمحبي ٤ /٤٩١ وحاشيته طبعت بمصر مراراً.

الجاحظ على العتّابي الشاعر الشامي لزمن الرشيد فيقول إنه كان يحتذي حذو بشار [١] زعيم المجددين في العصر العباسي الأول. وما يزال الشعراء العباسيون يعنون بتلك المحسنات حتى استطاع مسلم بن الوليد أن ينميها حتى ليتخذها كالمذهب له، وما يلبث أبو تمام الشاعر الشامي أن يتناولها منه ويبلغ بها الغاية المنتظرة من تكوين هذا المذهب الجديد الذي كان يسميه مسلم باسم البديع وفيه يقول ابو الفرج الأصبهاني. (هو فيما زعموا أول من قال الشعر المعروف بالبديع وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف وتبعه فيه جماعة أشهرهم أبو تمام الطائي) [٢] وآثرنا في كتابنا "الفن ومذاهبه في الشعر العربي" أن نسميه مذهب التصنيع أي التنميق حتى يشمل البديع وألوانه الحسية المعروفة كما يشمل الزخرف المعنوي على نحو ما صورنا ذلك عند أبي تمام [٣] على كل حال شاعر الشام أبو تمام المتوفى حوالي سنة ٢٣٠ للهجرة هو الذي تلقى بسرعة البرق هذا المذهب الجديد عن مسلم بن الوليد قبل اكتماله وأعطاه صورته النهائية [٤] ومن ذلك نخلص إلى أن الشام غن كانت قد تأخرت في صنع كتب البلاغة والنقد من الوجهة النظرية فإنها سبقت إلى الرقى ببلاغة الكلام نثرا وشعرا كما عند العتابي الكاتب والشاعر البليغ وأبي تمام حامل لواء الشعر في زمنه غير منازع.

وما نتقدم طويلا في القرن الرابع الهجري حتى نلتقي بأكبر حلقة نقدية أدبية طالما طمحت إليها أنظار الشعراء الشاميين، ونقصد حلقة حلب التي تكونت حول سيف الدولة بطل القوى العربية للمصارعة البيزنطيين. وكان سيدا بالمعنى العربي الكامل شجاعا كريما نبيلا مثقفا شاعرا، وهب نفسه لحرب البيزنطيين وسحقهم، كما وهبها هي وماله لإحداث حركة أدبية تنافس بها حلب بغداد إن لم تتفوق عليها، وطارت شهرته في إكرام العلماء والشعراء كل مطار، وسرعان ما التف حوله وعشا في كنفه من تحدثنا عنهم آنفا من الفلاسفة والأطباء وعلماء التنجيم واللغويين والنحاة وكثرة من الشعراء وكأنما لم يبق شاعر نابه في غيران والعراق والموصل والشام إلا أقبل إلى هذه الندوة الفكرية التي عاش فيها المتنبي تسع سنوات طوالا، وحله من العلماء أمثال ابن جني

---

(١) البيان والتبيين ٥١/١.

(٢) انظر ترجمة مسلم بن الوليد الملحقة بديوانه نشر الدكتور سامي الدهان.

(٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة العاشرة– نشر دار المعارف) ص ٢٣٩.

(٤) الفن ومذاهبه ص ٢٤٧.

اللغوي والشعراء أمثال النامي والكتاب أمثال أبي بكر الخوارزمي، وهم يدونّون شعره ويتدارسونه ويتناقشون معه حوله. ولزمه ابن جني– كما مر بنا– وشرح ديوانه شرحين: كبيرا وصغيرً، وكان أبو على الفارسي يراه حجة في اللغة لا نظير له. وكان إذا سُئل عن لفظة في شعره أو تعبيره ساق عليه الشواهد الكثيرة من أشعار العرب، وتصادف أن أنشد سيف الدولة أولى قصائده [١]

**وفاؤكما كالرّبع أشجاهُ طاسِمُهْ بأن تُسعِدا والدمعُ أشفاه ساجِمُهْ**

وكان ابن خالويه حاضراً فقال له: يا أبا الطيب إنما يقال شجاه، توهمه فعلا ماضيا وهو صيغة تفضيل فقال له أبو الطيب: اسكتْ فما وصل الأمر إليك [٢]. وكان ذلك سبباً في أن فسد ما بينهما طوال مقام المتنبي عند سيف الدولة. وظل ابن خالويه يكنُ له الضغينة واستطاع أن يؤلب عليه أبا فراس وبعض من كانوا حول سيف، مما جعل المتنبي يغادر حلب إلى غير مآب. والمهم أنه كان ينعقد من حين لآخر غبار من النقد اللغوي حول شعر المتنبي في حلقة سيف الدولة، وصوّر من هذا النقد كانت تنعقد بين شعراء الحلقة، وكثيرا ما كانوا يتحارون في سرقاتهم ممن سبقوهم من الشعراء، وهم أثناء ذلك يتناشدون أشعارهم أو أشعار سابقيهم مستحسنين تارة ومستهجنين أخري. وجميعها صور من النقد الذي يصقل الملكة الأدبية، وصوّر ذلك أبو بكر الخوارزمي الكاتب المشهور وأحد من تزود بما كان في الحلقة من نقد خصب، فقال: " ما فتق قلبي وشحذ فهمي وصقل ذهني أرهف حد لساني وبلغ هذا المبلغ بي إلا تلك الطرائف الشامية واللطائف الحلبية التي علقت بحفظي وامتزجت بأجزاء نفسي، وغصنُ الشباب وطيب ورداء الحداثة قَشيب"[٣].

ونلقتي بعد هذه الحلقة بأبي العلاء، وقد تعددت وجوه النقد اللغوي، فهو يضمنها شروحه لدواوين أبي تمام وسمّاه ديوان حبيب وديوان المتنبي وسماه معجزة أحمد– كما مر بنا– وارجع البحتري مرارًا ناقداً له ولذلك سمى شرحه لديوانه– كما أسلفنا– عبث

---

(١) يخاطب المتنبي بالبيت صاحبين له على عادة العرب. أشجاه: أحزنه، طاسمه: دارسه، بأن تسعدا: بالمساعدة في البكاء. يقول لصاحبيه: اسكبا معي الدمع فإنه أشقى للغلي كما أن الربع أكثر شجا للمحب إذا درس.

(٢) نزهة الألباء بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل وإبراهيم (طبع ونشر دار نهضة مصر) ص ٢٩٨.

(٣) اليتيمة للثعالبي (بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) ١٤/١.

الوليد وهو اسمه والبحتري لقبه، واختر الاسم للكتاب لما فيه من تورية واضحة. وهو يتكلم في شروحه للشعراء الثالثة عما في أشعارهم من غريب ومآخذهم من غيرهم وما أُخذ عليهم، وأحيانا ينتصر لهم وأحيانا ينتقدهم مع التوجيه- ما استطاع- لما يُظن أن أبا تمام والمتنبي أخطأ فيه. ولأبي العلاء في رسالة الغفران نقد كثير أجراه في القسم الأول على لسان صديقه ابن القارح حين أدخله الجنة وجعله يلقى الشعراء والرجاز ويعرض أثناء ذلك نقدا متنوعا لرواية الأشعار ولألفاظها العويصة وتراكيبها النحوية وبعض العيوب في أوزانها وقوافيها. وسوّى من هذا النقد في الرسالة الدكتور أمجد الطرابلسي كتابا بعنوان: "النقد واللغة في رسالة الغفران "ويظل النقد نشيطاً في الشام حتى أيام العثمانيين إذ نجد يوسف البديعي [١] المتوفى سنة ١٠٧٣ يؤلف كتابين نفيسين في النقد والتاريخ الأدبي، هما "هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام" و "الصبح المنبي في الكشف عن حيثية المتنبي" وهو يعرض في الكتابين سيرة الشاعرين عرضاً تفصيلياً كما يعرض آراء النقاد السابقين فيهما، ولا يكاد يترك خبراً مهما يتصل بسيرتهما ولا رأيا نقديا يتصل بأشعارهما مما يحيل الكتابين إلى مبحثين تاريخيين نقديين بارعين للشاعرين.

واهتمت الشام بالدراسات البلاغية اهتماماً واسعاً، وكان أول كتاب صدر لها في هذه الدراسات كتاب [٢] سر الفصاحة لابن سنان الخفايج عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٤٦٦ وسنترجم له بين الشعراء. والكتاب- كما يتضح من عنانه- يناقش قضية الفصاحة ويقدّم لها بحديث عن أحكام الأصوات ومخارجها. ثم يصور الفرق بينها وبين البلاغة، فيجعلها خاصة بالألفاظ ويجعل البلاغة عامة تشمل الألفاظ والمعاني. ويتنالوا صفات لافصاحة في الكلمة المفردة ثم في الكلام، ويخوض في تحليلات دقيقة تتصل بفنون الفصاحة وما يرتبط بها من البلاغة والبديع ومحسناته. ونلتقي بأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ وسنترجم له بين الشعراء، وله كتاب سماه البديع في نقد الشعر، وهو فيه يعني بالمحسنات البديعية، وقد عرض منها في الكتاب خمسة وتسعين محسنا.

---

(١) انظر في البديعية خلاصة الأثر ٥١٠/٤.

(٢) انظر في تحليل هذا الكتاب كتابنا " البلاغة تطور وتاريخ " (طبع دار المعارف) ص ١٥٢..

ويصنف الزملكاني "الدمشقي عبد [١] الواحد بن عبد الكريم المتوفى سنة ٦٥١ كتابا بعنوان "التبيان في علم البيان" استضاء فيه كما قال في مقدمته بكتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر، وقد عرض فيه مباحث كثيرة تتصل بعلوم المعاني والبيان والبديع مع إقحام بعض المباحث النحوية والمنطقة. ونلتقي سريعا ببدر [٢] الدين بن محمد بن مالك الأندلسي العالم النحوي الذي تحدثنا عنه آنفا بين النحاة، وله مثل أبيه مباحث نحوية، وعُنى بتلخيص كتاب المفتاح للسكاكي في كتابه" المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع"وقد أخلى ملخصه أو مختصره من تعقيدات كتاب المفتاح المنطقية والكلامية والفلسفية،ولم يجعل البديع- مثل السكاكي- ذيلا لعلمي المعاني والبيان، بل جعله علما مستقلا كما يتضح من عنوان كتابه. وقد أحصى من محسناته أربعة وخمسين محسناً.

ولم يلبث الخطيب [٣] القزويني الدمشقي المتوفى سنة ٧٣٩ أن ألف تلخيصاً دقيقا واضحاً لكتاب المفتاح كُتب له أن يذيع بين علماء البلاغة وأن يكتبوا له كثيرا من الشروح بحيث أصبح محور الدراسة للبلاغة وفنونها شرقا وغربا منذ زمنه إلى اليوم. وعُنى ببسط قضايا علوم البلاغة: المعاني و البيان والبديع في كتاب ثان له سماه الإيضاع، وله نفس الشهرة التي حظى بها تلخيصه.ويصنِّف ابن قيم [٤] الجوزية الدمشقي المتوفى سنة ٧٥١ كتابه " الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلوم البيان " وفيه يتحدث عن الفصاحة والبلاغة وفنون البيان والمعاني والبديع. وتنقص الكتاب دقة الترتيب والتبويب. وكان يعاصره الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ وسنترجم له ين المؤرخين، وعُنى بثلاثة فنون من فنون البديع: الجناس وله فيه كتاب جنان الجناس وهو مطبوع، والتورية والاستخدام وله فيهما كتاب فض الختام في التورية والاستخدام وبدار الكتب

---

(١) انظر في ترجمة الزملكاني السلوك للمقريزي ٣٩٨/١ والسبكي ٣١٦/٨ والشذرات ٢٥٤/٥ وبغية الوعاة ص ٣١٦ وراجع في تحليل كتابه " البلاغة تطور وتاريخ " ص ٣١٤.

(٢) راجع في ترجمة بدر الدين السلوك ٧٣٨/١ والسبكي ٨ /٩٨ والنجوم الزاهرة ٢٧٣/٧ والشذارت ٣٩٨/٥ والبغية ص ٩٠٦ وانظر في تحليل كتابه " البلاغة: تطور وتاريخ " ص ٣١٥.

(٣) انظر الخطيب في الدرر الكامنة لابن حجر ٤ /١٠٢ والنجوم الزاهرة ٣١٨/٩ والذرات ١٢٣/٦ وراجع ف تحليل تابيه " البلاغة: تطور وتاريخ " ص ٢٣٥ وما بعدها.

(٤) راجع في ابن القيم الدرر الكامنة لابن حجر ٢١/٤ والبدر الطالع ١٤٣/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٩/١٠ وطبقات الحنابلة للشطي ص ٦١ وكتابنا " البلاغة: تطور وتاريخ " ص ٣١٩.

obeikandl.com

المصرية مخطوطة منه. ونصبح في زمن تأليف البديعيات وشروحها وهي قصائد في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم يتضمن كل بيت فيها محسنا من محسنات البديع. وينظم ابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ بديعية في مائة واثنين وأربعين بيتا أحصى فيها محسنات البديع، وقد بلغت عنده نحو مائة وأربعين محسنا وشرحها شرحا مفصلا ساه بحق خزانة الأدب، إذ يشتمل على نظرات تحليلية نقدية وبلاغية كثيرة تتصل بالشعر والشعراء وخاصة في زمن الأيوبيين والمماليك، بحيث يصبح مصدرا مهما لمن يكتبون عن الأدبين المصري والشامي في تلك الحقب، مع منتخبات بديعة للشعراء والكُتاب تدل على ذوق أدبي مرهف، وسنترجم له بين الكتاب. وظل نشاط البديعيات متصلا أيام العثمانيين، ولعبد الغني النابلسي الذي سنترجم له في غير هذا الموضع بديعيتان [١] ومع كل بديعية شرح خاص بها.

(١) انظر الحديث عنهما في كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ ٣٦٤ وما بعدها.

obeikandl.com

٤

# علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذت الشام تُعنى بقراءة الذكر الحكيم منذ دخلها الإسلام مع الأفواج الأولى من الصحابة، ومن أهم قرائها في الصدر الأول أبو الدرداء قاضي دمشق المتوفى سنة ٣٢ للهجرة وكان إذا صلّى الغداة في جامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه. ومرّ بنا ذكر ذلك وأنه كان يجعل الناس شعرة عشرة ويجعل على كل عشرة عريفا، وعدّ يوما من يقرءون عنده فوجدهم ألفا وستمائة ونيفا، ولعل في ذلك ما يوضح إقبال الناس في الشام سريعا على قراءة الذكر الحكيم، وظلوا يدوّون به في مساجدها. وخلف أبا الدرداء في إقراء الناس بدمشق عبد [١] الله بن عامر اليمني العربي المتوفى سنة ١١٨ للهجرة وكان عريفا على عشرة عنده ممن يقرئون. ولم يكتف بأخذ القرآن وسماعه منه وعرضه عليه فقد أضاف إليه المغيرة بن أبي شهاب، فقرأ عليه القرآن، وكان المغيرة قرأه على عثمان بن عفان. واستطاع أن يبلغ من إحكام قراءته ما جعل ابن مجاهد بعدُ يختاره بين القراء السبعة المقدّمين، إذ كان بحق إمام أهل الشام في القراءة، ويقول ابن مجاهد في أوائل القرن الرابع: على قراءته أهل الشام والجزيرة ثم يعود، فيقول: " والغالب على أهل الشام قراءة ابن عامر" ويقول ابن الجزري في ترجمته: " لا زال أهل الشام قاطبة على قراءة ابن عامر تلاوة وصلاة وتلقينا إلى قريب من سنة خمسمائة".

وخلف ابن عامر على قراءته بدمشق يحيي [٢] بن الحارث الذمار الدمشقي إمام الجامع الأموي المتوفى سنة ١٤٥ وخلفه بالقيام على قراءة ابن عامر تلميذان بدمشق: أيوب [٣] بن تميم الدمشقي المتوفى سنة ١٩٨ وعنه أخذها عبد [٤] الله بن ذكوان إمام جامع دمشق وشيخ القراء بالشام المتوفى سنة ٢٤٢ والتلميذ الثاني عراك [٥] بن خالد

---

(١) راجع في ابن عامر وقراءته وأسانيده كتاب السبعة لابن مجاهد بتحقق نشر دار المعارف ص ٨٥، ١٠١ وكتاب طبقات القراء لابن الجزري ٤٢٣/١.

(٢) ابن الجزري ٣٦٧/٢

(٣) ابن الجزري ١٧٢/١

(٤) ابن الجزري ٤٠٤/١.

(٥) ابن الجزري ٥١١/١.

شيخ أهل دمشق في زمنه المتوفى قبل المائتين، وعنه وعن أيوب بن تميم أخذها هشام [١] بن عمار إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم وحدثهم ومفتيهم المتوفى سنة ٢٤٥. وبذلك أصبح لقراءة ابن عامر في الشام طريقان: طريق ابن ذكوان وطريق هشام بن عمرا، وهما تتقابلان في كتاب السبعة لابن مجاهد: الأولى أخذها عن أحمد بن يوسف التغلبي، والثانية أخذها عن أحمد بن محمد بن بكر. ولابد أن نلاحظ أ،ه كان بالشام من اختار لنفسه قراءة غير قراءة ابن عامر حتى منذ القرن الثاني فقد نزل المدينة عتبة بن حماد الدمشقي، فقرأ الموطأ على الإمام مالك وأخذ عن نافع أحد القراء المشهورين قراءته [٢]، وبالمثل أخذها عنه أبو مسهر [٣] الغساني عبد الأعلى بن مسهر المتوفى سنة ٢١٨. ويغلب أن يكون هناك آخرون قرءوا بقراءة ابن كثير قارئ مكة أو غيره من القراء السبعة.

ومرّ بنا ذكر ابن خالويه في بلاط سيف الدولة وكان قد تصدّر في حلب لإفادة الطلاب عشرات السنين، ونظن أنه عرض عليهم- فيما عرض القراءات السبع، إذ كان قد حملها عن ابن مجاهد كما ذكر ابن الجزري، وأيضاً فإن له في توجيه تلك القراءات كتابا معروفا. ويشهد لما نقول أننا نجد بين تلاميذه الحلبيين قارئا كبيراً هو أبو الطيب عبد [٤] المنعم بن غليون الحلبي المتوفى سنة ٣٨٩ وله كتاب الإرشاد في القراءات السبع، ومن أهم تلاميذه ابنه طاهر [٥] المتوفى سنة ٣٩٩ مؤلف التذكرة في القراءات الثمان وهو أستاذ أبي عمرو الداني صاحب كتاب التيسير المشهور في القراءات. وذكرنا في مقدمة الطبعة الأولى لكتاب السبعة أنه كان من بين ما اعتمدنا عليه في تحقيقه مخطوطة لكتاب الحجة في علل القراءات السبع لأبي علي الفارسي تلميذ ابن مجاهد تحتفظ بها مكتبة جامعة القاهرة ومجلداتها الأولى بخط طاهر بن عبد المنعم بن غلبون. وربما كان أبوه حمل هذا الكتاب عن أبي علي الفارسي مباشرة حين مقامة

---

(١) ابن الجزري ٣٥٤/٢

(٢) ابن الجزري ٤٩٩/١

(٣) ابن الجزري ٣٥٥/١

(٤) انظر في عبد المنعم بن غلبون طبقات القراء ٤٧٠/١ وطبقات الشافعية للسبكي ٣ /٣٣٨.

(٥) راجع في " طاهر" ابن الجزري ٣٣٩/١.

obeikandl.com

بحلب، كما مربنا. ويصنف عبد [١] الجبار الطرسوسي المتوفى سنة ٤٢٠ كتاب المجتبي في القراءات ونلتقي بالحسن [٢] بن علي الأهوازي شيخ القراء بدمشق منذ سنة أربعمائة حتى وفاته سنة ٤٤٦ وكان قد استوطنها منذ سنة ٣٩١ وكان يكثر من الحملة على الأشعري والأشعرية، ومن أجله صنف ابن عساكر – فيما بعد – كتابه: تبيين كذب المفترى فيما نُسب إلى أبي الحسن الأشعري، وكانت له مؤلفات كثيرة في القراءات والقرآن وعلومه.

وما يزال التأليف في القراءات والقرآن وعلومه مستمرا في الشام حتى نلتقي بابن [٣] الطحان عبد العزيز بن سلمة نزيل حلب المتوفى حول سنة ٥٦٠ وله تصانيف مفيدة في علوم القرآن منها كتاب الوقف والابتداء، وكان على علم واسع بالقراءات. ونلتقي في أيام الأيوبيين بأبي اليمن [٤] الكندي زيد بن الحسن نزيل دمشق المتوفى سنة ٦١٣ وهو من المعمّرين ويقال إنه قرأ القراءات العشر وهو ابن عشر سنين وظل يقرأ القراءات ثلاثا وثمانين سنة. ومن تلاميذه علم [٥] الدين السخاوي على بن محمد شيخ مشايخ الإقراء بدمشق وقد ظل يقرئ الناس نيفا وأربعين سنة حتى توفى سنة ٦٤٣ وله مصنفات كثيرة في القراءات والتفسير منها شرح الشاطبية وهو أجل شروحها، ومنها جمال القراء وكمال الاقراء. ومن تلاميذه الذين تصدّروا القراءة في دمشق أبو الفتح [٦] محمد بن علي وليّ مشيخة القراءة بتربة أم الصالح، وأبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ تولّى مشيخة الحديث الكبرى بالأشرفية، وسنذكر مصادر ترجمته بين المؤرخين ، و القاضي عبد السلام الزواوى المتوفى سنة ٦٨١ و سنذكر مصادر ترجمته بين فقهاء المالكية، تولى مشيخة الإقراء الكبرى بالتربة الصالحية بعد وفاة شيخها أبي الفتح وإليه

---

(١) انظر في عبد الجبار ابن الجزري ١ /٣٥٧.

(٢) راجع في الأهوازي ابن الجزري ٢٢٠/١ والنجوم الزاهرة ٥٦/٥.

(٣) انظر في ابن الطحان ابن الجزري ٣٩٥/١.

(٤) راجع في أبي اليمن ابن الجزري ٢٩٧/١ ومعجم الأدباء ١١ /١٧ وخطط الشام ٤٧/٢ والبداية والنهاية ٧١/١٣ وإبناه الوراة ٢ /١٠ وابن خلكان ٣٣٩/٢.

(٥) انظر في علم الدين السخاوي معجم الأدباء ٦٥/١٥ وابن خلكان ٣٤٠/٣ وإنبباه الرواة ٣١١/٢ وطبقات القراء ٥٦٨/١ والسبكي ٢٧٩/٨.

(٦) راجع ابن الجزري ٢١١/٢.

انتهت رياسة الإقراء بالشام. ومن كبار القراء بالشام في القرن الثامن ابن [١] جبارة المقدسي، درس القراءات بمصر وطاف بدمشق وحلب ثم استقر في بيت المقدس موطنه مدرسا للقراءات وعلوم العربية حتى توفي سنة ٧٢٨. وكان يعاصره برهان [٢] الدين الجعبري استوطن بلدة الخليل بجوار بيت المقدس حتى توفي سنة ٧٣٢ وكان يقرئ الناس بها وصَنف في القراءات كتاب نزهة البررة في القراءات العشرة. ونلتقى بابن البارزي قاضى حماة ومفتى الشام المتوفى سنة ٧٣٨ وله شرح على الشاطبية وكتاب الشرعة في قراءات السبعة. وما نزال نقرأ عن مؤلفات شامية في القراءات حتى نصل إلى ابن [٣] الجزري محمد بن محمد المتوفى سنة ٨٣٣ وله كتاب النشر في القراءات العشر وهو منشور وكتاب غاية النهاية في طبقات القراء وهو مصدرنا الأساسي في الحديث عنهم. ومن كبار القراء والحفاظ بعده شمس الدين الرملي الدمشقي أحمد بن أحمد بن محمد، ولد بالرملة ورحل إلى دمشق للقاء علمائها وفيها أكب على القراءات والحديث والفقه، وتوّلى مشيخة الإقراء بالجامع الأموي حتى توفي سنة ٩٢٣. وظلت القراءات بالشام نشيطة أيام العثمانيين حتى العصر الحديث، يتجرّد لها العلماء تارة، وتارة ثانية يجمعون بينها وبين بعض العلوم كالتفسير أو الفقه أو علوم العربية.

وعلى نحو ماعُنيت الشام بالقراءات عنيت بتفسير القرآن الكريم، حتى إذا خرج الطبري تفسيره أكبت عليه ندرسه، ويلقانا لها مفسر مهم هو عبد [٤] الله بن عطية الدمشقي المفسر المتوفى سنة ٣٨٣ كان يحفظ الآلاف من أبيات الشعر العربي واستخدمها في تفسيره لمعاني الألفاظ القرآنية. ونلتقي بعده بسليم بن أيوب المتوفى سنة ٥٤٧ وله تفسير [٥] للقرآن الكريم. ويلقانا في أيام نور الدين محمد بن ظفر المكي الذي عرضنا له في الحديث عن شعراء الزهد في الجزيرة العربية المتوفى سنة ٥٦٥

---

(١) انظر في ابن جبارة ابن اجلزري ١٢٢/١ والدرر رقم٦٦٧ والشذرات ٨٧/٦.

(٢) راجع في العبري ابن الجزري ٢١/١ والدرر رقم ١٣٠ والشذرات ٩٧/٦.

(٣) ترجم ابن الجزري لنفسه في كتابه طبقات القراء ٢٤٧/٢ وألحقت بالترجمة زيادة عن سنة وفاته لبعض تلاميذه وانظر الفوائد البهية للكتوي ١٤٠ ودائرة المعارف الإسلامية.

(٤) انظر في ابن عطية الدمشقي طبقات المفسرين للسيوطي رقم ٤٣ و النجوم الزاهرة ١٦٥/٤ وبروكلمان ١٥/٤.

(٥) خطط الشام لكرد علي ٤١/٤.

استوطن حماة بأخرة من حياته وألف فيها تفسيره المسمى "ينبوع الحياة" [١] واستوطن حلب تلميذ من تلامذة الزمخشري هو عالي [٢] بن إبراهيم الغزنوي وأقام بها يدرس وينصف حتى وفاته سنة ٥٨٢ وفيها ألف تفسرياً كبيرا في مجلدين سماه تفسير التفسير. واستوطن دمشق الصوفي الكبير ابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ وله تفسير صوفي لم يتمه وهو مطبوع. وللعز بن عبد السلام الفقيه الشافعي الدمشقي نزيل مصر الذي عرضنا له فيها بين فقهاء الشافعية تفسير بلاغي، وفي دار الكتب المصرية مخطوطاً منه.

ونلتقي في أوائل القرن الثامن بمفسرين كبيرين هما هبة الله بن البرازي وابن تيمية، أما هبة [٣] الله فكان قاضيا لحماة وإليه انتهت مشيخة المذهب الشافعي بالشام وله شرح على الشاطبية في القراءات، وله روضان الجنان في تفسير القرآن في عشر مجلدات توفي سنة ٧٣٨، أما ابن تيمية فقد مر بنا حديث مفصل عنه في الحركة العلمية، ونعرض هنا منهجه في التفسير القرآني وقد صوره في رسالة عنوانها أصول التفسير، ومن خلالها أجملناه في مقدمة كتابنا: " سورة الرحمن وسور قصار: عرض ودراسة " موضحين أنه حمل على الإسرائيليات المدسوسة في التفاسير وعلى المعتزلة والشيعة الباطنية الذين يؤولون ألفاظ القرآن وعباراته كما حمل على المتصوفة في تفاسيرهم من مثل تفسر ابن عربي، ورأى أن خير طرق التفسير تفسير القرآن بالقرآن فإن لم يف القرآن أحيانا رجع المفسر إلى الحديث النبوي وأقوال الصحابة والتابعين الذين عايشوهم وعرفوا منهم معاني القرآن الكريم. وبعد استيفاء ذلك كله وما يتصل به من إتقان العربية وتعمق علوم الشريعة والوقوف بدقة على دلالات القرآن وحسن تذوقه لخصائصه البلاغية يستطيع المفسر أن يجتهد في التفسير ويستنبط استنباطات سديدة. وطبّق منهجه على سورة النور وسورتي المعوذتين القصيرتين وخصّ سورة الإخلاص أو التوحيد بكتاب. ويتحول تفسيره للآية الكريمة إلى بحث في مضمونها من خلال القرآن جميعه.

---

(١) تتمة المختصر لابن الوردي ٨٧/٢.

(٢) راجعه في تاج التراجم لابن قطلوبغا ص ٤٩ والبداية والنهاية ١١٤/١٣.

(٣) انظر في ابن البارزي الدرر جـ ٣ رقم ١١٠٣ وطبقات القراء ٣٥١/٢ والشذرات ١١٩/٦.

ونهج نهج ابن تيمية في تفسير الذكر الحكيم تلميذه ابن قيم الجوزية على نحو ما يتضح في كتابه. "التبيان في أقسام القرآن" وفي تفسيره للمعوّذتين. وكن يعاصره السمين [١] الحلبي أحمد بن يوسف وكان نحويا مقرئا ونزل مصر وبها توفي سنة ٧٥٦ وله تفسير ضخم في عشرين مجلدا وكتاب في إعراب القرآن في ثلاثة مجلدات باسم الدر المصون، وكتاب في أحكام القرآن، وله شرح على الشاطبية في القراءات، وشرح ثان على التسهيل لابن مالك في النحو. ونلتقي بابن [٢] كثير أكبر المفسرين الشاميين وأهمهم المتوفى بدمشق سنة ٧٧٤ نشرتْ تفسيره مطبعةُ المنار في تسعة أجزاء، وعداده في التفسير بالمأثور من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين والمفسرين السابقين، وفيه يقول ابن حجر ناقدا: " لم يكن ابن كثير على طريق المحدثين في تحصيل العوالي وتمييز العالي من النازل ونحو ذلك من فنونهم وإنما هو من محدثي الفقهاء" ويقول الشوكاني مُثنيا على تفسيره: " جمع فيه فأوعى ونقل المذاهب والأخبار والآثار وتكلم بأحسن كلام وأنفسه، وهو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها" ويصنف العليمي عبد الرحمن بن محمد الحنبلي المتوفى سنة ٩٢٧ للهجرة تفسيراً للذكر الحكيم، وتؤلف كتب تفسير أخرى، ويظل تفسير ابن كثير التفسير المتداول بين علماء الشام إلى العصر الحديث.

وشغلت الشام منذ دخلت في الدين الحنيف بتلاوة الذكر الحكيم وتفسيره كما شغلت بالحديث النبوي مكمل الدين القيم ومبينه وموضح تعاليمه، وكان أول المحدثين بها صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم حمله عنهم التابعون يحدثون به الناس من أمثال مكحول [٣] مفتي الشام ومحدثها المتوفى سنة ١١٨. وكان يعاصره محمد [٤] بن شهاب الزهري أول من دوّن الحديث تدوينا عاما، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق: عليكم بابن شهاب، فإنكم لا تجدون أحدا أعلم بالسنة الماضية منه، وعاش بعد

---

(١) راجع في السمين الحلبي طبقات القراء ١٥٢/١ والدرر الجزء الأول رقم ٨٤٦ والشذرات ١٧٩/٦.

(٢) انظر في ترجمة ابن كثير الدرر جـ ١ رقم ٩٤٨ والشذرات ٢٣١/٦ والبدر الطالع ١٥٣/١.

(٣) راجع في مكحول حلية الأولياء ١٧٧/٥ وابن خلكا ٢٨٠/٥ وميزان الاعتدال ١٧٧/٤ وتهذيب التهذيب ١٠ /٢٩٨ والشذرات ١٤٦/١.

(٤) انظر في الزهرى صفة الصوفية ٧٧/٢ وابن خلكان ١٧٧/٤ وميزان الاعتدال ٤٠/٤ وتهذيب التهذيب ٤٤٥/٩ وطبقات القراء ٢٦٢/٢.

عمر ثلاثة وعشرين عاما إذ توفي سنة ١٢٤ ويقال إنه روى عن عشرة من الصحابة لحقهم، وقد أتاح للشام أن تكون أول جامعة وناشرة للحديث النبوي وكان موظفا لدى الأمويين وعمل قاضيا ليزيد بن عبد الملك، وعنه حمل الحديث الأوزاعي فقيه الشام المتوفى سنة ١٥٧ وعداده في الفقهاء، كما حمله الإمام مالك فقيه المدينة والليث بن سعد فقيه مصر وسفيان ابن عُيينه وسفيان الثوري فقيها العراق. وعن تلاميذ الزهري والأوزاعي في الشام حمل الحديث هشام ابن عمار مقرئ دمشق ومفتيها الذي مرّ بنا ذكره بين القراء. وممن حمل عنه الحديث القاضي عبد [١] الصمد بن عبد الله قاضي دمشق، وعنه روى الحديث أبو زرعة الدمشقي شيخ الشام في الحديث. ونلتقي بخيثمة [٢] بن سليمان الطرابلسي أحد الحفّاظ الثقات المشهورين المتوفى سنة ٣٤٣. ولا تلبث بلدة طبرية بالشام أن تقدم سليمان [٣] بن أحمد الطبراني المولود سنة ٢٦٠ والمتوفى سنة ٣٦٠ صاحب المعاجم الثلاثة: الكبير والأوسط والصغير، وقد جمع في الكبير أحاديث جميع الصحابة ما عدا أبا هُريرة إذ أفرد له كتابا خاص. وكان يعاصره الحسين [٤] بن محمد الماسرجسيّ الحافظ المتوفى سنة ٣٦٥ أخذ بدمشق عن أصحاب هشام بن عمار، صنّف المسند الكبير مهذباً معللاً في ألف وثلاثمائة جزئ ولم يصنّف في الإسلام أكبر من مُسنده وجمع حديث ابن شهاب الزهري جمعا لم يسبقه إليه أحد وكان يحفظه مثل الماء. ونلتقي بحافظ من صَيْداء هو أبو الحسين [٥] محمد بن أحمد الغساني المولود سنة ٣٠٥ والمتوفي سنة ٤٠٢ وله مسند على ترتيب أوائل أسماء الرواة. ويلقانا حافظ من صور هو محمد [٦] بن علي الصوري المتوفى سنة ٤٤٦ قدم بغداد وأخذ عنه حفاظها الثقات. ويلقانا حافظ بيت المقدس محمد [٧] بن طاهر

---

(١) راجعه في النجوم الزاهرة ١٩٣/٣ وانظر في أبي زرعة النجوم ٨٧/٣.

(٢) انظر في خيثمة تذكرة الحفاظ للذهبي ~(طبع حيدر آباد) ٧٥/٣ والشذرات ٣٣٤/٢.

(٣) راجع في الطبراني تهذيب تاريخ ابن عساكر ٢٤٠/٦ وابن خلكان ٢٠٧/٢ و النجوم الزاهرة ٥٩/٤ وعبر الذهبي ٣١٥/٢.

(٤) انظر في الماسرخسي النجوم الزاهرة ٤ /١١١

(٥) راجع الغساني في النجوم ٤ /٢٣١ وبروكلمان ٣ /٢١٤

(٦) انظر في الصوري تاريخ بغداد ١٠٣/٣ وتذكرة الحفاظ للذهبي ٣ /٣١١ وبروكلمان ٣ /٢٣١

(٧) راجع في ابن القيسراني المنتظم ٩ /١٧٧ وابن خلكان ٢٨٧/٤ والوافي للصفدي ١٦٦/٣ وميزان الأعتدال ٥٨٧/٣ وعبر الذهبي ١٤/٤ والشذرات ١٨/٤.

openkanal.com

المقدسي المعروف باسم ابن القيسراني المتوفى سنة ٥٠٧ وله مصنفات في الحديث النبوي متعددة، منها: "أطراف الكتب الستة" وهي صحيح البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة.

وينشط المحدثون أيام نور الدين والأيوبيين في مقدمتهم أبو القاسم [١] بن عساكر المتوفى سنة ٦٧١ وبنى له نور الدين دار الحديث النورية بدمشق، وله في الحديث مصنفات كثيرة مفيدة منها " الأطراف" جمع فيه ما اتفق عليه الأئمة الثقات في الحديث، وله وراء ذلك أمالٍ كثيرة. وجاء بعده عبد [٢] الغني الجمّاعيلي المتوفى سنة ٦٠٠ وله كتاب في أحاديث الأحكام الشرعية سماه " عمدة الأحكام في معالم الحلال والحرام عن خير الأنام " وكتبت له الأجيال التالية شروحا كثيرة، وهو صاحب كتاب الكمال في معرفة أسماء الرجال. وكتب له جمال الدين يوسف المزّي الآتي ذكره تكملة بعنوان " تهذيب الكمال" وله مختصرات كثيرة. وأكمل التهذيب مُغلطاي بعنوان إكمال تهذيب الكمال، ونلتقي بابن [٣] الصلاح عثمان بن صلاح الدين المتوفى سنة ٦٤٣ وهو حافظ كبير تولي مشيخة دار الحديث الأشرفية بدمشق وله كتاب أقصى الأمل والشوق في علوم حديث الرسول، طبُع مرارا بعنان مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث وله مختصرات كثيرة. ويلقانا محبي الدين النووي الفقيه الكبير المتوفى سنة ٦٧٦ وعداده بين فقهاء الشافعية، وكان حافظا متقنا، وله شرح على صحيح مسلم هو أهم شروحه، وله رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين وكتاب الأذكار المنتخب من كلام سيد الأبرار وله الأربعون النووية وكتاب التقريب في مصطلح الحديث وكتاب تهذيب الأسماء واللغات، ودّرس بدار الحديث الأشرفية في دمشق وغيرها.

وكان يعاصر النووي اليونيني على [٤] بن محمد بن أحمد شرف الدين المتوفى سنة ٧٠١ وله خدمة عظيمة أداها لصحيح البخاري، إذ حول أن يخرج من مخطوطاته

---

(١) مرت مصادر ترجمته في ص ٥٦٣.

(٢) راجع في الجماعيلي تذكرة الحفاظ ١٦٠/٤ وطبقات الحفاظ للسيوطي ١٨ وكتابه حسن المحاضرة ٣٥٤/١ والعبر ٣١٣/٤.

(٣) انظر في ابن الصلاح ابن خلكان ٢٤٣/٣ وتذكرة الحفاظ ١٤٣٠/٤ والسبكي ٣٢٦/٨ والبداية والنهاية ١٦٨/١٣ والشذرات ٢٢١/٥.

(٤) راجع اليونيني في الدرر لابن حجر ١٧١/٣ والسلوك ٥٢٤/١ و النجوم الزاهرة ١٩٨/٨ والشذرات ٣/٦.

نسخة في أدق صورة ممكنة لمنفعة المسلمين في العالم الإسلامي، واختار أصلا لهذا الإخراج نسخة وثيقة كانت موقوفة بمدرسة أقبغا آص بالقاهرة وقابلها في واحد وسبعين مجلسا على أصل مسموع للحافظ أبي ذر الهروي وأصل ثان مسموع للحافظ أبي محمد الأصيلي وأصل ثالث مسموع لأبي القاسم بن عساكر المذكور آنفا وأصل رابع مسموع على الشيخ أبي الوقت بقراءة السمعاني. وكان بجواره في تلك المجالس الإمام النحوي ابن مالك للمراجعة والتصحيح مما جعله فيما بعد يملي كتابا مستقلا بعنوان " شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح" وكان أمام اليونيني في مجالسه المذكورة جمع من طلاب الحديث وعلمائه وفي أيديهم نسخ من صحيح البخاري للمقابلة. واتخذ اليونيني رمزا لرواة تلك النسخ ولرواة آخرين بحيث بلغت رموزه خمسة عشر رمزاً. وقد طبعت مطبعة بولاق الكتاب من نسخة فرعية لتلك النسخة اليونانية، وهي نسخة ابن مالك وعليها شهادة من اليونيني بسماعه النسخة عليه، وشهادة من ابن مالك بسماعها منه. وهي ذروة في التحقيق لم يبلغها أحد بعد اليونيني، كما أشرنا إلى ذلك في كتابنا " البحث [١] الأدبي"

ومن كبار المحدثين في القرن الثامن الهجري المِزّي [٢] يوسف بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٤٢ وإليه انتهت رياسة المحدثين بالشام، ومن تصانيفه تحفة الإشراف بمعرفة الأطراف "طبع في الهند، وله "تهذيب الكمال" المجمع على أنه لم يصنف مثله وكان يعاصره الذهبي محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨ حافظ الشام وهو مع المزي من مفاخر دمشق في زمنهما وله في الحديث تصانيف كثيرة مثل مختصر سنن البيهقي ومختصر الأطراف للمزي والمعجم الكبير والصغير، وسنعود للحديث عنه بين المؤرخين. ومن محدثي القرن التاسع بدر [٣] الدين العيني المتوفى سنة ٨٥٥ صاحب كتاب " عمدة القاريء في شرح صحيح البخاري" والخيضري [٤] الدمشقي محمد بن

---

(١) البحث الأدبي (طبع دار المعارف) ص ١٨٦ وما بعدها.

(٢) انظر المزى في الدرر ٢٣٣/٥ و النجوم الزاهرة ٧٦/١٠ وشذرات لاذهب ١٣٦/٦ والبداية والنهاية ١٩١/١٤ والسبكى ٣٩٥/١٠ وتاريخ ابن الوردي ٣٣٢/٢ وطبقات الحفاظ للسيوطي ٥١٧ والدارس في أخبار المدارس ٣٥/١ وتذكرة الحفاظ ١٤٩٨/٤ والبدر الطالع ٢ /٣٥٣.

(٣) انظر في العيني حسن المحاضرة ١ /٤٧٣ والفوائد البهية ٢٠٧ والضوء اللامع جـ ١٠ رقم ٥٤٥ والشذرات ٧ /٢٨٦ والبدر الطالع ٣٩٤/٢

(٤) راجع في الخيضري الضوء اللامع ج ٩ رقم ٣٠٥.

openkanal.com

محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٨٩٤ وله تعليقات على شرح ابن حجر للبخاري المسمى بالفتح الباري. وظل هذا التراث الضخم بأعين المحدثين أيام العثمانيين، وكان أكثر اهتمامهم بكتب الصحاح الستة وخاصة بشروح ابن حجر والقسطلاني على صحيح البخاري وشرح النووي على صحيح مسلم.

وطبيعي أن يكون الفقه نشيطا في الشام مع الدراسات الدينية السابقة لحاجة أهل الشام إلى الفتوى في القضايا الشرعية وما يعرض لهم منها في حياتهم اليومية، وفعلا تكوّن للشام إمام أنشأ مذهبا فقهيا ظل فيها طويلا بجوار المذاهب الأربعة المشهورة: مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل ونقصد الإمام الأوزاعي [١] صاحب المذهب المنسوب إلهي أصحابه من الأوزاعية، وقد توفي سنة ١٥٧ للهجرة، ومولده ببعلبك ومنشئوه ببيروت، واتخذها موطنه إلى وفاته، ويقول السبكي إنه: " لم يكن يلي القضاء بدمشق والخطابة والإمامة- قبل ظهور مذهب الشافعي فيها لأواخر القرن الثالث كما سيتضح عما قليل- الأوزاعيّ على مذهب الإمام الأوزاعي [٢]. ويذكر المؤرخون أنه ولى القضاء بدمشق يحيي بن حمزة منذ سنة ١٥٤ إلى سنة ١٨٣ ثم وليه بعده ابنه محمد [٣] إلى سنة ٢٣١. وأكبر الظن أن كلام السبكي يشملهما وانهما كانا يقضيان بين الناس بمذهب الأوزاعي. ويبدو أنه ظل بعدهما من كان يقضى بهذا المذهب، إذ يذكر ابن تغري بردي انه توفي لسنة ٣٤٧ قاضى مشق أحمد [٤] بن سليمان بن حذلم الأوزاعي المذهب، ويقول إنه كان له حلقة بالجامع الأموي وأكبر الظن أنه كان يدرس للناس فيها المذهب. ومعنى ذلك أن مذهب الأوزاعي كان لا يزال حياً في دمشق والشام إلى أواسط القرن الرابع الهجري. ومعرف أن الأمويين في أول تأسيس حكمهم بالأندلس كانوا على مذهب الأوزاعي مثل أهل الشام وظلوا عليه إلى أن

---

(١) انظر في الأوزاعي الجزء السابع من طبقات ابن سعد والأنساب للسمعاني ٥٣ وابن خلكان ١٢٦/٣ وتايخ بغداد ١٩٩/١٠ وتذكرة الحفاظ ٥٨/١ وشذرات الذهب ١٤١/١ و النجوم الزاهرة ٣٠٢/٢ ومحاسن السماعى في مناقب الأوزاعي (طبع اقاهرة) صنفه مؤلف مجهول سنة ٨٥٠ وضحى الإسلام ٩٨/٢.

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ١ /٢٣٦

(٣) انظر فيه وفي أبيه النجوم الزاهرة ٢٢/٢ – ١١٣، ٢٦٠.

(٤) راجع في ابن حدلم النجوم الزاهرة ٣٢٠/٣ وفي السبكي ١٩٦/٣: ابن خديم.

انتقلوا عنه إلى مذهب مالك في أواخر القرن الثاني للهجرة [١]، وكأنهم كانوا أسبق من أهل الشام انفصالا عن مذهب الأوزاعي

وتذكر كتب التراجم والتاريخ أن أبا يوسف تلميذ أبي حنيفة حين ولى قضاء القضاة لعهد الخليفة الرشيد وأصبح هو المسيطر على توليه القضاة في الدولة الإسلامية كان لا يولى قضاء البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى أعمال أفريقية إلا أصحابه والمنتمين إلى مذهبه الحنفي، ونظن ظنا أنه كان يوجد في دمشق أحيانا قاض حنفي بجانب القاضي الأوزاعي، وربما كانا يتداولان الحكم وممن تذكرهم كتب التاريخ من قضاة الأحناف قاضي دمشق علي [٢] بن محمد بن كاس المتوفى سنة ٣٢٥ للهجرة، ونظن ظنا أن حلب كانت أسرع من دمشق في الانصياع لمذهب أبي حنيفة بحكم قربها أكثر من العراق، ومثلها في ذلك أنطاكية، ويلقانها فيها ابن أبي الفهم [٣] التنوخي الأنطاكي المتوفى سنة ٣٤٢ وكان فيها حنفياً بارعا. ونلتقى في حلب بأحمد [٤] بن يحيي بن زهير الحلبي المتوفى سنة ٤٢٤ وله كتاب ذكر فيه الخلاف بين أبي حنيفة وأصحابه من مثل أبي يوسف و محمد بن الحسن الشيباني تلميذيه، واخذ عن ابن زهير المذهب بحلب جد بنى أبي جرادة هبة الله بن أحمد، وتولى القضاء بمدينته، وكانت أسرته على ثراء غير قليل فأكبت على المذهب تدرسه وتتعمقه منذ هبة الله إلى حفيده عمر بن العديم في القرن السابع كما سنذكر عما قليل.

ونخلص من ذلك إلى أنه كان من الأسباب المهمة في دخول مذهب أبي حنيفة إلى الشام أن كثيرين من القضاة منذ أواخر القرن الثاني كانوا أحنافا، فأخذ المذهب يشيع، وتكاثر طلاب العلم الذين يبغون اعتناقه، وأخذ يدرسه لهم غير عالم حنفي. ويلقانا المفضل [٥]، بن محمد المعري الحنفي المتوفى سنة ٤٤٤ تلميذ الإمام القدوري الحنفي البغدادي ولي القضاء ببعلبك وتاب في القضاء بدمشق، ومن تصانيفه كتاب

---

(١) تاريخ الفكر الأندلسي لبالنثيا ترجمة الدكتور حسن مؤنس ص ٤١٣، ٤١٧

(٢) النجوم الزاهرة ٢٦٠/٣

(٣) النجوم الزاهرة ٣١٠/٣ وتاج التراجم رقم ١٣٥.

(٤) انظر ابن زهير في تاج التراجم رقم ٤١ وقابل بمعجم الأدباء ٥/١٦ وما بعدها.

(٥) راجع المفضل في النجوم الزاهرة ٥٢/٥ وتاج التراجم رقم ٢٢٤

في الرد على الإمام الشافعي. ويلقانا البلاساغوني [١] محمد بن موسى المتوفى سنة ٥٠٦ مصنف " أصول الفقه" على مذهب أبي حنيّفة، وليّ قضاء بيت المقدس ودمشق مدة. وكان القضاة قبله في الشام شافعية وكذلك كان أئمة الجامع الأموي، فحاول أن يقيم فيه إماماً حنفياً، فأغلق أهل دمشق الجامع ولم يمكّنوه وعُزل وعاد القضاء في دمشق إلى الشافعية.

وكانت قد أخذت المدارس تنشأ بالشام وكانت قد أُسست في دمشق- كما مر بنا- المدرسة الصادرية سنة ٤٩١ ويعدُ ابن شداد من فقهائها حتى سنة ٦٥٨ أحد عشر فقيها حنفياً، وذكر النعيمي بعده فقهاءها إلى نهاية أيام المماليك. وقد ذكر ابن شداد بجوارها في دمشق وضواحيها حتى سنة ٦٧٠ أربعا وثلاثين مدرسة للأحناف ويذكر أسماء فقهائها حتى سنة ٦٧٠ ويتابع ذلك النعيمي. ويصنع ابن شداد نفس الصنيع بحلب وما أنشئ فيها من مدارس حنفية منذ أسست فيها المدرسة الزجاجية سنة ٥١٦ وكانت حلب قد أقبلت أكثر من دمشق- على المذهب الحنفي من قديم كما مرّ بنا. واشتهرت فيها أسر بتوارث هذا المذهب مثل أسرة بني العديم، وعني نور الدين بالمذهب وكان حنفيا وأسس له مدرستين: مدرسة بحلب وأخرى بدمشق سميت كل منهما بالمدرسة النورية. ومضى الأيوبيون بعده يعنون بالمذهب ومدارسه، وكانوا شافعية، وانفرد من بينهم المعظم عيسى صاحب دمشق ( ٦١٥- ٦٢٤ هـ) باعتناقه المذهب الحنفي وتعمقه فيه، على هدى من أستاذه جمال الدين الحصيري [٢] الذي انتهت إليه رياسة المذهب بدمشق والمتوفى سنة ٦٣٦ وله شرحان على الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني: شرح مفصل في ثمان مجلدات سماه التحرير، وشرح مختصر في مجلدين سماه الوجيز، ومع إيجازه زاد فيه ١٦٣٠ مسألة مع الإيضاح بالنظائر والشواهد. وشَرح أيضا للشيباني كتاب السير الكبير وهو في الأحكام الفقهية المتعلقة بالغزوات والحرب، وله كتاب في الخلاف بين الشافعية والحنفية، ودفع المعظم للتعمق في المذهب حتى ألف فيه كتابا [٣]. وليس ذلك فحسب، فقد كلّف الحصيري

---

(١) انظر في البلاساغوني النجوم الزاهرة ٢٠٤/٥ والسبكي ٣٢٦/١.

(٢) راجع في الحصيري الفوائد البهية في طبقات الحنفية ٨٤ والجواهر المضية لابن أبي الوفا ١٥٥/٢ وتاج التراجم رقم ٢٠٨ والبداية والنهاية ١٥٢/١٣ و النجوم الزاهرة ٢١٣/٦.

(٣) انظر في المعظم عسى ونشاطه في الفقه الحنفي مختصر مرآة الزمان ٤٢٦.

وفقهاء المذهب بتأليف كتاب جامع فيه، فألفوا كتابا في عشر مجلدات سموه كتاب التذكرة.

وتُظل الشام أيام المماليك ويقرر الظاهر بيبرس أن لا يُقتصر في مصر على قاض شافعي كما كان الشأن منذ عهد صلاح الدين، بل يشترك معه في القضاء قاض حنفي وقاض مالكي وقاض حنبلي وعمم ذلك في دولته بدمشق وحلب وغيرهما من مدن الشام، واطرد العمل بذلك إلى أيام العثمانيين، فكان من الأسباب المهمة في ازدهار المذهب الحنفي بديار الشام بجوار ما كان له من مدارس، مما دفع إلى حركة علمية نشيطة فيه، وكان أول من تولى القضاء بدمشق من فقهاء الأحناف حسب قرار بيبرس عبد [١] الله بن محمد بن عطا الأذرعي المتوفى سنة ٦٧٣، وتوالي القضاة الأحناف فيها بعده، منهم شمس الدين الأذرعي المتوفى سنة ٧٢٢ ولى قضاء دمشق عشرين سنة ودرس طويلا بمدارسها الحنفية. وتتكاثر أسماء القضاة والفقهاء الأحناف في كتب التاريخ والتراجم، وحسبنا أن نعرف أن نشاطاً وافراً أداة فقهاء الأحناف في ديار الشام بالحقب التالية. وظل هذا النشاط أيام العثمانيين، ولبرهان [٢] الدين الحلبي المتوفى سنة ٩٥٦ كتاب ملتقى الأبحر في فروع الفقه الحنفي، وقد ترجم قديما إلى التركية والفرنسية، وصنف شمس الدين التمرتاشي الغزي المتوفى سنة ١٠٠٤ للهجرة كتاب تنوير الأبصار وجامع البحار في الفقه الحنفي، ومنه ومن شروحه مخطوطات بدار الكتاب المصرية.

وكان أقل المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى انتشاراً وأتباعا في الشام المذهب المالكي، ويأخذ في النشاط هناك متأخرا زمن الدولة الأيوبية، منذ بنى صلاح الدين بدمشق للمالكية مدرسته الصلاحية بالقرب من البيمارستان النوري، ويذكر ابن شداد من أساتذتها المهمين ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ وقد مرّ بنا ذكره بين النحاة وله مختصران نفيسان في الفقه المالكي وعلم الأصول، ودرّس الفقه المالكي أيضا في زاوية المالكية الملاصقة لغربي الجامع الأموي، بناها أيضا للمالكية صلاح الدين. وخلفه في

(١) انظر في الأذرعي النجوم الزاهرة ٢٤٦/٧ والسلوك للمقريزي ٦١٩/١.

(٢) راجع في برهان الدين دائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان (الطبعة الألمانية) ٤٣٣/٢.

المدرسة الصلاحية عبد [١] السلام الزواوي المتوفى ولا يذكر ابن شداد للمالكية وراء المدرسة الصلاحية سوى مدرسة واحدة هي مدرسة الشرابيشي في حين ذكر للحنفية كما أسلفنا أربعة وثلاثين مدرسة. وكان قد انتعش المذهب المالكي كغيره من المذاهب حين قرر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ إسناد الحكم في بلدان الشام الكبرى: دمشق وغيرها إلى أربعة قضاة بينهم قاض مالكي، وكان أول من تولى القضاء المالكي بدمشق حينئذ عبد السالم الزواوي المذكور آنفا، وتعاقب بعده القضاة، كما تعاقب فقهاء المالكية يدرسون الناس المذهب، ومن أهمهم عيسى [٢] بن مسعود مدرس الفقه المالكي بالجامع الأموي المتوفى سنة ٧٤٣ وله شرح جيد على مختصر ابن الحاجب، وشرح المدونة للفقه المالكي لمصنفها سحنون ناشر المذهب في الديار المغربية، وله شرح موسع على صحيح مسلم وكتاب في مناقب مالك وإليه انتهت رياسة المالكية في الشام. ويلقانا في كتب التراجم كثيرون ينتقلون بين القاهرة ودمشق متولين لمنصب القضاء المالكي. ويأخذ نشط المالكية أيام العثمانيين في التضاؤل والشحوب.

وكان أول من أدخل مذهب الشافعي- فيما يبدو- إلى الشام أبو زرعة [٣] بن عثمان الدمشقي ولي القضاء بالقاهرة ثماني سنوات، ثم ولىَ القضاء بدمشق سنة ٢٩٢ حتى توفى سنة ٣٠٢ ويقول السبكي في كتابه طبقات الشافعية: لم يل القضاء بعده في الشام إلا شافعي المذهب غير ابن حذلم قاضي الشام فإنه كان أوزاعي المذهب كما مرّ بنا. ومرّ بنا أيضا انه ولى قضاء الشام حتى توفي سنة ٣٢٥. ويغلب أن يكون هذا شذوذا وأن تكون عبارة السبكي صحيحة، كما يتضح ذلك لمن يرجع إلى كتاب قضاة دمشق لأبن طولون. ومنهم عبد [٤] الله بن محمد القزويني قاضي الرملة المتوفى سنة ٣١٥ والحسين [٥] بن أبي زرعة محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٢٧ وكان قاضيا

---

(١) راجع في عبد السلام الزواوي النجوم الزاهرة ٣٥٦/٧ وطبقات القراء ٣٨٦/١ والبداية والنهية ٣٠٠/١٣ والسلوك ٥٤٢/١

(٢) انظر في ابن مسعود الدرر الكامنة لابن حجر ٢٩٠/٣.

(٣) راجع ابا زرعة في قضاة دمشق لابن طولون (طبع دمشق) ٢٢ والبداية والنهاية ١٢٢/١١ والشذرات ٢٣٩/٢. والسبكي ١٩٦/٣ وقابل على ٣٢٦/١.

(٤) انظر قضاة دمشق ٢٦ البداية والنهاية ١٥٧/١١ والعبر ١٦٢/٢ والسبكي ٣٢٠/٣

(٥) راجع الحسين في السبكي ٢٨١/٣ وقضاة دمشق ٢٨

لدمشق في زمن الإخشيد، وأبو [١] يحيي البلخي زكريا بن أحمد المتوفى سنة ٣٣٠ وكان مثل سابقيه قاضيا لدمشق. ومنهم أيضا أيام الفاطميين أبو بكر الميانجيّ قاضي دمشق المتوفى سنة ٣٧٥. ويبدو أنه تجرد في القرن الرابع فقهاء شافعية لعرض المذهب الشافعي ودراسته في مدن الشام الكبرى، إذ نجد عبد المنعم بن غلبون الحلبي المتوفى سنة ٣٨٩ مقرئ حلب يسلكه السبكي بين فقهاء الشافعية، ويقول إنه تلقن المذهب على الحصائري [٢] الحسن بن حبيب الدمشقي إمام مسجد باب الجابية بدمشق المتوفى سنة ٣٣٨، ويلقانا في القرن الخامس فقيه شافعي هو أبو [٣] الخير المروزي يستوطن المعرّة سنة ٤١٨ ويدرس بها للطلاب حتى وفاته سنة ٤٤٧ وله كتاب في فقه الشافعي يسمى الذخيرة حلمه عنه طلابه. ونلتقى من قضاة دمشق بأبي المظفر عبد [٤] الجليل بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٧٩ وكان يعاصره نصر [٥] بن إبراهيم المقدسي المتوفى سنة ٤٩٠ تفقه على الفقيه سليم بصور ودرس فيها عشر سنوات ثم انتقل إلى دمشق يدرس ويفتي ويحدّث. وكان قد نزل بصوامع ببيت المقدس ودمشق الإمام الغزالي منذ سنة ٤٨٨ وله ثلاثة كتب في الفقه الشافعي: البسيط والوسيط والوجيز، وشُغف بها الشافعية منذ زمنه في الشام وغير الشام.

ويدخل مذهب الشافعي في مرحلة كبرى جديدة ينتشر فيها بالشام أوسع انتشار، ونقصد مرحلة تأسيس مدارس الشافعية منذ تأسيس المدرسة الأمينية في سنة ٥١٤ ويعدُ ابن شداد في كتابه " الأعلاق الخطيرة " من مدرسي هذه المدرسة حتى زمن تأليفه لكتابه حوالي سنة ٦٧٠ عشرة من كبار فقهاء الشافعية، ولا تتجاوز مدارس الشافعية بدمشق حتى عهد نور الدين عد أصابع اليد الواحدة، حتى إذا خلص الأمر لصلاح الدين والأيوبيين– وكانوا شافعية إلا ما كان من اعتناق المعظم عيسى للمذهب الحنفي– ازدهر المذهب الشافعي منذ هذا التاريخ، وقد جعل صلاح الدين قاضي

---

(١) انظر البلخي في قضاة دمشق ٢٨ والسبكي ٢٩٨/٣ والشذرات ٣٢٦/٢ والعبر ٢٢٢/٢

(٢) راجع في الحصائري السبكي ٢٥٥/٣ وقارن مع ابن غليون في السبكي ٣٣٨/٣.

(٣) انظر أبا الخير في السبكي ٢٩٩/٤.

(٤) راجع في أبي المظفر قضاة دمشق ٤٢ و السبكي ١٠٠/٥.

(٥) انظر نصر بن إبراهيم في تهذي الأسماء واللغات ١٢٥/٢ والسبكي ٣٥١/٥ والعبر ٣٢٩/٣ ومرآة الجنان ١٥٢/٣ و النجوم الزاهرة ١٦٠/٥ والشذرات ٣٩٥/٣.

openkanal.com

القضاة بدمشق شافعيا، وبلغت مدارس الشافعية– كما أحصاها ابن شداد– أربعين مدرسة حتى أيامه. وإذا تصورنا أن المدرسين النابهين لكل مدرسة من هذه المدارس بلغوا حتى زمنه في المتوسط أربعة من المدرسين يكون معنى ذلك أن المذهب الشافعي حظى حتى أواخر القرن السابع الهجري في دمشق وحدها بما لا يقل عن مائة وستين فقيها نابها، واطرد العمل بذلك في هذه المدارس بدمشق وفيما أحصاه بعدها النعيمي في كتابه " الدارس" وأيضاً فيما قابلها من مدارس للشافعية في حلب وغيرها من بلدان الشام الكبرى.

ومن المؤكد أن قرار الظاهر بيبرس بأن يكون للمذاهب الكبرى بجانب مذهب الشافعي قاض لم يحدث أثرا عكسيا في المذهب كما كان يُظن، إذ كان زمام القضاء في أيام الأيوبيين بيد الشافعية وحدهم، بل ظل للمذهب ازدهاره، وظل له الجمهور الأكبر من الناس والفقهاء في الشام، ونكتفي بالوقوف عند بعض مشهوريهم، فمنهم ابن [١] أبي عصرون قاضي القضاة بدمشق لعهد صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٥ وبنى له قبل ذلك نور الدين المدارس بحلب وحماة وحمص وبعلبك، وبنى هو لنفسه مدرستين بحلب ودمشق، ويقول السبكي عنه: ملأ البلاد تصانيف وتلامذة، ويذكر من تصانيفه " صفوة المذهب" في سبع مجلدات وكتاب الانتصار في أربع مجلدات وكتاب المرشد في مجلدين وكتاب الذريعة في معرفة الشريعة، إلى غير ذلك من مصنفات كثيرة، ومن كبار فقهاء الشام بعده العز بن عبد السلام، ذكرناه بين فقهاء الشافعية بمصر، إذ استوطنها حتى وفاته.

وفي رأينا أن أعظم فقيه شافعي أنجبته الشام هو محيي الدين النووي [٢] المتوفى سنة ٦٧٦ عن خمسة وأربعين عاما، ومر بنا ذكره بين المحدثين وكان إماما مجتهدا واسمه يتردد في كتب الفقه الشافعي بعده وكذلك آراؤه، ومن أهم مصنفاته في فقه الشافعية منهاج الطالبين لخص به كتاب المحرّر للرافعي القزويني، واختصر المنهاج

---

(١) انظر في ابن أبي صعرون خريدو القصر (قسم شعراء الشام) ٣٥١/٢ وابن خلكان ٥٣/٣ والسبكي ١٣٢/٥ ونكت الهميان ١٨٦ وطبقات القراؤ ٤٥٥/١ ووالعبر ٢٥٦/٤ و النجوم الزاهرة ١٠٩/٦ وتذكرة الحفاظ ١٣٥٧/٤ والبداية والنهاية ٣٣٣/١٢ والشذرات ٢٨٣/٤.

(٢) راجع في النووي السبكي ٨ /٣٩٥ والبداية والنهاية ٢٧٨/١٣ وتذكرة الحفاظ ٤ /١٤٧٠ و النجوم الزاهرة ٢٧٨/٧ والعرة ٣١٢/٥ وشذرات الذهب ٣٥٤/٥ والسلوك ٦٤٨/١ والدارس في أخبار المدارس ٢٤/١.

فما بعد الشيخ زكريا الانصاري، وسمى مختصره المنهج، وصنف النووي في فتاويه الفقهية كتابين: كبير وصغير. ومن فقهاء الشافعية الكبار في زمنه وبعد زمنه علاء [١] الدين الباجي المتوفى سنة ٧١٤ وكمال الدين محمد الزملكاني حفيد عبد الواحد الذي ذكرناه بين البلاغيين توفي سنة ٧٢٧. وتفيض كتب التراجم والتاريخ بأسماء جلة من هؤلاء الفقهاء، ولابد أن نلاحظ أن كثيرين من فقهاء الشافعية الكبار بمصر كانوا ينزلون في الشام مثل تقي الدين السبكي قاضي قضاة الشام وابنه تاج الدين عبد الوهاب خطيب الجامع الأموي مؤلف طبقات الشافعية، ويظل المذهب الشافعي مزدهرا بالشام أيام المماليك والعثمانيين.

وكان المذهب الحنبلي في الشام أقل أشياعا وأنصاراً من المذهب الشافعي والحنفي، ومن أوائل من أدخلوه إلى دمشق والشام علم من أعلام المذهب الحنبلي هو القاسم الخرقي عمر [٢] بن الحسين المتوفى بدمشق سنة ٣٣٤ وكان قد استوطنها بأخرة من عمره ودرس المذهب فيها، وله كتاب دوّت شهرته هو " المختصر" في الفقه الحنبلي، ظل طلاب المذهب يعتمدون عليه طويلا، ويقال عن عدد مسائله بلغ ٢٣٠٠ مسألة. وظل المذهب لا ينتعش في ديار الشام حتى قُيّض له في القرن الخامس أبو الفرج [٣] الشيرازي المقدسي الدمشقي المتوفى سنة ٤٨٦ وكان قد تفقه في بغداد على أبي يَعلَى صاحب طبقات الحنابلة، وقدم الشام فسكن ببيت المقدس وغيرهما من بلدان الشام، وله تصانيف عدة في الفقه الحنبلي والأصول، منها: المبهج والإيضاح، ومختصر في الحدود وفي أصول الفقه، والتبصرة في أصول الدين، وله كتاب الجواهر في التفسير ثلاثون مجلدا. وكان يعاصره الفقيه الحنبلي عبد [٤] الوهاب بن طالب التميمي نزيل دمشق وإمام مسجد الريحان.

---

(١) انظر في علاء الدين الباجي الدرر الكامنة ٣ /١٧٦ وطبقات الشافعية للسبكي ١٠ /٣٣٩ وفوات الوفيات ٢ /١٥٠ وحسن المحاضرة ١ /٥٥٤ والشذرات ٦ /٣٤.

(٢) انظر في الخرقي تاريخ بغداد ١١ /٢٣٤ وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ٣٣١ والأنساب للسمعاني ١٩٥ وابن خلكان ٤٤١/٣ و النجوم الزاهرة ٢٨٩/٣.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (طبعة دمشق) ٨٥/١ وما بعدها.

(٤) ابن رجب ١ /٩٦.

وخلف أبا الفرج الشيرازي على المذهب ابنه عبد الوهاب المتوفى سنة ٥٣٦ وتخرج من بيته فقهاء حنابلة كثيرون، ويعرفون في دمشق والشام ببيت ابن الحنبلي، ولعبد الوهاب مثل أبيه تصانيف في الفقه الحنبلي والأصول، منها المنتخب في الفقه الحنبلي في مجلدين والبرهان في أصول الدين. ولعبد الوهاب على المذهب في الشام يد سابغة، فقد بنى له بدمشق مدرسة تعرف بالمدرسة الحنبلية، ويذكر ابن شداد أساتذتها من الحنابلة الفقهاء حتى أيام تأليف كتابه " الأعلاق الخطيرة" بعد سنة ٦٧٠، ويذكر بدمشق معها تسعة مدارس أخرى للحنابلة بنيت بعدها حتى زمن ابن شداد. ونشط بماء المدارس الحنبلية في بيت المقدس وظل بعد ابن شداد على نحو ما يصوره ذلك النعيمي في كتابه " الدارس في تاريخ المدارس". وكان مما ضاعف نشاط هذا المذهب قرار الظاهر بيبرس أن يكون للحنابلة في ديار الشام– كما في ديار مصر– قاض في كل بلد كبير بجنب قضاة الحنفية والمالكية والشافعية. ويتضح هذا النشاط وتتضح معه كثرة الفقهاء من الحنابلة منذ أيام الأيوبيين، ومن كبارهم حينئذ موفق [١] الدين بن قدامة الجماعيلي المقدسي عبد الله بن أحمد المتوفى بدمشق سنة ٦٢٠ وهو من أئمة المذهب، وله كتب كثيرة في الفقه الحنبلي وأصوله وأصول الدين، منها المغنى شرح به مختصر الخرقي المار ذكره في عشر مجلدات، وهو مطبوع، والكافي في أربع مجلدات، وله في أصول الفقه كتاب روضة الناظر، وفي أصول الدين كتاب الاعتقاد، ويلقانا بعده فقهاء كثيرون من بيته يتردد ذكرهم طوال القرنين السابع والثامن.

وما نكاد نبلغ نهاية القرن السابع أيام المماليك حتى يتألق في المذهب اسم الإمام ابن [٢] تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ وقد صورنا جانبا من تحرره الفكري واجتهاده في غير هذا الموضع، ومرّ بنا حديثنا عن منهجه في التفسير القرآني، وله عشرات الرسائل والكتب في المسائل التشريعية والعقيدية، ويقو الذهبي في تذكرة الحفاظ إن مصنفاته التي سارت بها الركبان نحو ثلاثمائة مجلد، ومن أهم كتبه الفقهية فتاويه وهي مطبوعة قديما في خمسة مجلدات كبار. ومن أعلام الفقهاء الحنابلة بعده تلميذه ابن قيم الجوزية المذكور بين البلاغيين وهو حامل فقهه وعلمه وناشرهما في الناس وأضاف إليهما كثيرا

(١) راجع في ابن قدامة ابن رجب ٢ /١٧٠ والبداية والنهاية ٩٩/١٣ والشذرات ٨٨/٥ و النجوم الزاهرة ٢٥٦/٦.

(٢) مرت مصادر ابن تيمية في الحركة العلمية ص ٥٥١.

من روائع الكتب، مع نزعة صوفية قوية فيه. وتصدى في دمشق بعد أستاذه للإقراء والإفتاء وصنّف كثيرا في الفقه والتفسير والحديث والأصول والفروع، ومن تصانيفه إعلام الموقعين وشرح منازل السائرين، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، وطرق السعادتين، ويقول ابن حجر في الدرر: هو طويل النفس في كتاباته يحاول الإيضاح جهده فيسهب جدا، ويقول الشوكاني في البدر الطالع: " له من حسن التصرف مع العذوبة الزائدة وحسن السياق ملا يقدر عليه غالب المصنفين بحيث تعشق ألافهام كلامه وتميل إليه الأذهان وتحبه القلوب ". ويزخر كتاب النجوم الزاهرة بأسماء فقهاء الحنابلة وقضاتهم بدمشق وغيرهم حتى نهاية زمن تأليفه سنة ٨٧٢. ويلقانا بأخرة من أيام المماليك مجبر الدين العليمي عبد الرحمن بن محمد قاضي بيت المقدس المتوفى سنة ٩٢٧ وله كتاب في طبقات الحنابلة سماه " المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد ". ويظل للفقهاء الحنابلة نشاطهم أيام العثمانيين مثلهم في ذلك مثل بقية أصحاب المذاهب الثلاثة الأخرى.

ومنذ ظهرت المذاهب الفقهية والكلامية والجدل يحتدم بين أصحابها، مما أتاح مبكراً لنشأة علم الجدل وما تبعه من نشأة علم آداب البحث والمناظرة، ويكثر التأليف فيهما لهذا العصر كما يكثر التأليف في علم الأصول الذي وضعه الإمام الشافعي وفاق الأولين والآخرين فيه الآمدي الذي سنلم به في حديثنا عن علم الكلام بجزء مصر، وكان قد نزل مصر ثم استوطن حماة حتى وفاته سنة ٦٣١، وكتابه " الإحكام في أصول الأحكام" ربما كان أروع كتاب في علم الأوصل على مدى الأزمنة الماضية. والشام– مثل مصر– انصرفت عن الاعتزال وعن الفرق الكلامية الكثيرة التي نشأت في بغداد، حتى إذا ظهر الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ وانضم تحت لوائه شافعية خراسان انضم مثلهم شافعية الشام ومصر بحيث تعانق المذهبان. الشافعي والأشعري في كل مكان. ولم يلبث أن خاصمهما الحنابلة الآخذون بظاهر الكتاب والسنة، واستمر هذا الخصام على مدار السنين في أزمنة الأيوبيين والمماليك. ومن حين إلى آخر يتوقف السبكي في طبقاته ليصور تعصب بعض الحنابلة ضد الأشاعره وخاصة أستاذه الذهبي، فقد كان يتعصب تعصبا شديدا ضدهم على نحو ما سنعرض ذلك في غير هذا الموضع. وفي الوقت نفسه يشيد بفقهاء الشافعية الذين يردّون على خصوم

الأشعرية، على نحو ما أشاد بخفر الدين بن عساكر في رده المفحم على الحسن بن على الأهوازي المار بين القراء في كتابه " تبيين كذب المفتى فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري". ويشيد السبكي بصفي [١] الدين بن الهندي المتوفى بدمشق سنة ٧١٥ لقيامه بنصرة المذهب الأشعري، ويقول: إنه كان من أعلم الناس بمذهبه وأدراهم بأسراره، ويذكر من تصانيفه في نصرة المذهب كتابه " زبدة الكلام" ويذكر له بجواره كتابا في الأصول هو " نهاية الأصول في دراية الأصول".. وظلت نصرة الشافعية لمذهب الأشعري على مدار السنين في أيام المماليك والعثمانيين.

(١) راجع في صفي الدين طبقات السبكي ٩ /١٦٢ والوافي بالوفيات ٣ /٢٣٩ والدرر لابن حجر ٤ /١٣٢٢ ومرآة الجنان ٢٧٢/٤ والشذرات ٣٧/٦ والبدر الطالبع ١٨٧/٢.

obeikandl.com

٥

# التاريخ

نشطت دمشق والشام في كتابة التاريخ بجميع صوره من السير المفردة وتاريخ المدن وتاريخ الدول أو دولة معينة والتراجم أو كتب الطبقات. ونبدأ حديثنا بالسير المفردة، وأولها سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم الزكية، وأول شامي ندب نفسه للكتابة فيها أبو [١] زرعة عبد الرحمن بن عمرو شيخ الشام المتوفى سنة ٢٨٢ وله بجانبها كتاب عن تاريخ الخلفاء الراشدين، سقط مثل السيرة النبوية من يد الزمن. وعنى بعض الشاميين بالكتابة فيها ولم تصلنا كتاباته، مثل السيرة النبوية لابن أبي طي المتوفى سنة ٦٣٠. ونلتقي في أيام العثمانيين بشمس الدين الدمشقي محمد [٢] بن يوسف المتوفى سنة ٩٤٢ وله سيرة نبوية تسمى السيرة الشامية جمعها من نحو ٣٠٠ كتاب، وتعنى مصر بإخراجها الآن. وصنّف نور الدين الحلبي المولود بمصر السيرة الحلبية، ومر ذكرها في حديثنا عن التاريخ بقسم مصر، وهي مطبوعة. ونلتقي بثلاث سير أو تراجم شخصية صور أصحابها فيها حياتهم، وأول ما يلقانا من كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ وهو يصور فيها حياة الشاميين وحملة الصليب لزمنه، نشرها فيليب حتى وكان قد نشرها قبل ديرنبورج. ولأبي شامة المقدسي المتوفى سنة ٦٦٥ ترجمة شخصية بقلمه أودعها كتابه " ذيل الروضتين" وبالمثل لابن طولون الصالحي المذكور بين الجغرافيين المتوفى سنة ٩٥٣ ترجمة شخصية بعنوان " الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون " وهي مطبوعة بدمشق.

وشغل صلاح الدين بسيرته المؤرخين، وأولهم العماد الأصبهاني وفيه ألف كتابه " البرق الشامي" ذكر فيه أخبار صالح الدين وفتوحاته وأحداث الشام في عهده، وهو في سبع مجلدات. ويتصل بهذه السيرة كتابه " الفيح القُسيّ في الفتح القدسي" صوّر فيه

---

(١) انظر فلي أبي زرعة النجوم الزاهرة ٣ /٨٧ وقارن بالجزء ١ /١٢٨ وتاريخ ابن عساكر ٧ /٢٧٤ وابن حجر في التهذيب ٢ /٥٥. وراجع بروكلمان ٣ /٢١.

(٢) انظر في شمس الدين الشذرات ٨/٢٤٩.

obeikandl.com

فتح صلاح الدين للقدس تصويرا أدبياً بديعاً. وصنّف بهاء [١] الدين بن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ سيرة لصلاح الدين بعنوان: " النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" اعتمد فيها على السيرة الصلاحية لأبن أبي طي. ولابن عين الشاعر المتوفى سنة ٦٣٠ سيرة [٢] للملك العزيز سماها التاريخ العزيزي. وكتب أحد أولاد الناصر داود بن عيسى بن الملك العادل سيرة له باسم " الفوائد [٣] الجلية في الفرائد الناصرية". وللنووي المذكور بين الفقهاء كتاب في سيرة الإمام الشافعي، ولابن عربشاه [٤] الدمشقي المتوفى سنة ٨٥٤ سيرة مفصلة لتيمورلنك تعقب فيها مولده ونشأته وملكه ودولته ومن خلفوه حتى سنة ٨٤٠ وسمى هذه السيرة "عجائب المقدور في نوائب تيمور" مصوراً إفساده في الأرض وإهلاكه الحرث والنسل وما ارتكب من الفظائع، غير أنه كتبها بأسلوب مسجوع شديد التكلف، ونزل مصر بأخرة من عمره في عهد السلطان جقمق وكتب سيرته بعنوان "التأليف الطاهر في شيم الملك الظاهر". ولبدر الدين العيني المار ذكره كتاب السيف المهند في سيرة السلطان المؤيد، ولبدر الدين محمد [٥] بن أبي بكر الدمشقي المتوفى سنة ٨٧٤ سيرتان: سيرة لنور الدين، والسيرة الثانية للسلطان قايتباي، وله سير كثيرة ي العصر. ولابن طولون الذي ذكرناه آنفا ين الجغرافيين سيرة لابن العربي المتصوف. وصنف شمس الدين الدمشقي المار ذكره سيرة لأبي حنيفة. ومنها مخطوطة في دار الكتب المصرية. ولمحمد بن يحي الحنبلي سيرة صنفها عن عبد القادر الجبلاني المتصوف، وهي مطبوعة، ولمرعى [٦] بن يوسف الكرمي المتوفى سنة ١٠٣٣ سيرة صنفها في مناقب ابن تيمية.

هذا بعض ما صادفناه من كتب السير المفردة، أما كتب تاريخ المدن فقد عرضنا طائفة منها في حديثنا عن علم الجغرافيا وخاصة ما اتصل منها بفضائل دمشق والشام

---

(١) راجع بهاء الدين في ابن خلكان ٨٤/٧ والسبكي ٣٦٠/٨ وتاريخ ابن الوردي ١٦٠/٢ وتذكرة الحفاظ ١٤٥٩/٤ وطبقات القراء ٣٩٥/٢ والبداية والنهاية ١٤٣/١٣ والمختصر لأبي الفدا ١٥٦/٣ و النجوم الزاهرة ٢٩٢/٦ والشذرات ١٥٨/٥.

(٢) انظر كشف الظنون لحاجي خليفة (الطبعة الثانية) ٢٩٨.

(٣) بروكلمان (الطبعة العربية) ١٨/٦

(٤) انظر مصادر ترجمة ابن عربشاه في ص ٨٢٩

(٥) راجع ترجمته في الضوء اللامع ١٥٦/٧

(٦) انظر في مرعى الكرمى خلاصة الأثر ٣٥٨/٤

obeikandi.com

وبيت المقدس، ونبسط الكلام في كتابين ذكرناهما هناك، أما أولهما فتاريخ مدينة دمشق للإمام الحافظ ابن عساكر على بن الحسن المتوفى سنة ٥٧١ ويقال إنه في ثمانين مجلدا بدأه بالحديث عن فضائل الشام وفتوحها وخططها ومساجدها وكنائسها ودورها ثم ترجم لكل من دخل دمشق والشام منذ الجاهلية إلى زمنه من الأنبياء والخلفاء والولاة والفقهاء والقضاة والعلماء من كل صنف والشعراء والكتاب. وهذبه بحذف الأسانيد عبد القادر بن أحمد بن بدران، ونشر من تهذيبه سبعة " مجلدات" حتى ترجمة عبد الله بن سيار، وقلما يذكر في المراجع باسم تهذيب تاريخ ابن عساكر، بل يقال مباشرة تاريخ ابن عساكر، والكتاب الثاني الذي سبق أن عرضنا له ونرى الوقوف عنده كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن شداد، وهو يذكر خططها ثم يسهب في ذكر الجامع الأموي وذكر مساجدها حتى زمنه، ويتحدث عن مزاراتها في باطنها وظاهرها وخوانقها وربطها ومدارسها الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وكنائسها وديراتها وحماماتها وما مُدحت به نثرا وشعراً، وهو بذلك تاريخ اجتماعي ثقافي حضاري، وقد عُنى ابن شداد بحلب كما عنى بدمشق. ولعل أهم كتاب عُنى بها قبله كتاب " بغية الطلب في تاريخ حلب" لابن العديم [١] عمر بن أحمد المتوفى سنة ٦٦٠ صنفه في عشر مجدات أرّخ فيها لعلمائها وأدبائها على الترتيب الأبجدي وجعل له تاريخا لحلب على السنين في كتابه: " زبدة الحلب من تاريخ حلب" وصل به إلى نهاية أيام نور الدين محمود سنة ٥٦٩ حققه ونشره الدكتور سامي الدهان بدمشق. ولابن خطيب [٢] الناصرية على بن محمد المتوفى سنة ٨٤٣ تتمة لبغية الطلب في مجلدات سماها" الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب" وأكمله محمد بن محمد بن الشحنة المتوفى سنة ٨٩٠ وسمى تكملته " نزهة النواظر". وعنى بكل ذلك أيام العثمانيين ابن [٣] الحنبلي محمد بن إبراهيم الحلبي المتوفى سنة ٩٧١ ونصف كتابه " الزبد والضّرب ( عسل النحل) في تاريخ حلب" مع تكملته إلى سنة ٩٥١. ولمجير الدين العليمي المتوفى سنة ٩٢٧ كتاب الأنيس الجليل في تاريخ القدس والخليل مطبوع. ومن يرجع إلى كتاب " الإعلان

---

(١)انظر في العديم معجم الأدباء ٥/١٦ وفوات الوفيات ٢٠٠/٢ والشذارت ٣٠٣/٥ وتاجر التراجم ص ٤٨ و مقدمة الدكتور سامي الدهان لكتابه زبدة الحلب.

(٢)راجع ابن خطيب الناصرية في الضوء اللامع جـ ٥ رقم ١٠١٦ والشذرات ٢٤٧/٧.

(٣) انظر ابن الحنبلي في الشذرات ٦٦٥/٨.

obeikandi.com

بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" سيجد بلدان الشام مع من كتبوا تاريخها تتعاقب. تُذكر أولا حلب ثم حمص فالخليل فداريّا ضاحية لدمشق فدمشق فصفد فصور فطرابلس فعسقلان، ولا نبالغ إذا قلنا إنه لم تبق بلدة في الشام إلا تجرد عالم لكتابة تاريخها ومنها ما وصلنا ومنها ما لم يصلنا وضاع مع الأيام.

ونترك تاريخ البلدان إلى التاريخ العام، وأول ما يلقنان فيه ابن القلانسي حمزة [١] بن أسد المتوفى سنة ٥٥٥ وله تاريخ للحوادث على السنين سماه تاريخ دمشق ذّيل به على كتاب التاريخ لهلال الصابي ابتدأ به كما يقول ياقوت من سنة ٤٤١ إلى حين وفاته سنة ٥٥٥. وكان يعاصره العظيمي [٢] الحلبي المتوفى بعد سنة ٥٥٦، ولمحمد بن عمر ببن شاهنشاه كتاب عن حماة وتاريخها وله أيضا تاريخ على السنين. وجاء بعدهما ابن أبي الدم [٣] الحموي قاضي حماة المتوفى سنة٦٤٢ وله التاريخ المظفرى وهو تاريخ عام في ستة مجلدات حتى سنة ٦٢٧، وسبط ابن الجوزي الحنفي المولود ببغداد والمستوطن لدمشق منذ مطلع القرن السابع حتى وفاته سنة ٦٥٤، وسبط ابن الجوزي الحنفي المولود ببغداد والمستوطن لدمشق منذ مطلع القرن السابع حتى وفاته سنة ٦٥٤ وله كتاب مرآة الزمان في تاريخ الأعيان بدأ به من أول الخليقة ورتبه منذ الهجرة النبوية على السنين حتى سنة وفاته، وفيه يذكر الحوادث ثم الوفيات في كل سنة، وكان في أربعين مجلدا، ونُشر منه في حيدر آباد قسمان من الجزء الثامن على نحو ما أوضحنا ذلك في حديثنا عن المؤرخين بالعراق في الجزء السالف. ولموسى [٤] بن محمد اليونيني البعلبكي المتوفى سنة ٧٢٦ مختصر للمرآة في نحو النصف مع ذيل في أربعة مجلدات يتناول أولها مصر وسوريا من سنة ٦٥٨ إلى سنة ٦٧٤. ويلقانا مؤرخ كبير هو أبو الفداء صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ وقد ذكرناه بين الجغرافيين وله كتاب المختصر في أخبار البشر، وزعه على قسمين: قسم عن الجاهلية

---

(١) راجع في ابن القلانسي تاريخ دمشق لابن عساكر ٤ /٤٣٩ ومعجم الأدباء ٢٧٨/١٠ و النجوم الزاهرة ٣٣٢/٥ والشذرات ١٧٤/٤.

(٢) انظر في العظيمي بروكلمان (الترجمة العربية) ١٣١/٦

(٣) راجع في ابن أبي الدم: السبكي ١١٥/٨ وتاريخ ابن الوردي ١٧٥/٢ والشذرات ٢١٣/٥ والمختصر لأبي الفدا ١٨٢/٣.

(٤) راجع موسى في الدرر ١٥٣/٥ والشذرات ٧٣/٦ والبداية والنهاية ١٢٦/١٤

والـديانات والأنبيـاء وقسـم عـن الإسـلام حتـى سـنة ٧٢٩ وهـو تـاريخ نفـيس ترجمـه المستشـرقون قـديماً إلـى اللاتينيـة، وصـنف عمـر نـب المظفـر بـن الـوردي المتـوفى سـنة ٧٤٩ تكلمه له حتى أيامه سماها " تتمية المختصر" طبعت مثل أصلها مرارا.

ونلتقـي بالـذهبي [١] محمـد بـن أحمـد المتـوفى سـنة ٧٤٨ ولـه تـاريخ الإسـلام وطبقـات مشـاهير الأعـلام فـي ١٢ مجلـدا رتبـه علـى السـنين جامعـا فيـه بـين الأحـداث والوفيـات. ونقـد السـبكي تلميـذه فـي طبقاتـه موقفـه مـن الأشـعرية، وأنـه لـم يقـف علـى الحيـاد فـي عرضـه لهـم وللصـوفية أيضـا. وكـان الحنابلـة يخاصـمون الطـائفتين ولـذلك يصـبّ علـيهم جمعيـاً جـامّ غضـبه، إذ كـان حنبليـا متعصـبا لأصـحاب مذهبـه، حتـى ليقـول السـبكي أنـه كـان إذا تـرجم واحـدا مـن الحنابلـة يطنـب فـي وصـفه بجميـع مـا قيـل فيـه مـن المحاسـن، ويتغافـل عـن غلطاتـه ويتـأول لـه مـا أمكـن، وإذا تـرجم أحـدا مـن الأشـعرية كإمـام الحـرمين الجـويني والغزالـي وأمثالهمـا لا يبـالغ فـي وصـفه ويكثـر مـن قـول مـن طعـن فيـه، ويعيـد ذلـك ويبديـه [٢]. وكـان ينبغـي أن يكـون مصـنفا فـي تاريخـه وتراجمـه فيـه بريئـا مـن العصـبية فـي المـذهب، ويقـول السـبكي " " هـذا وهـو الحـافظ المِـدره والإمـام المبجّـل فمـا بالـك بعـوام المـؤرخين". وللـذهبي تـاريخ عـام فـي مجلـدين، وهـو مختصـر لتاريخـه الكبيـر، رتبـه علـى السـنوات وذكـر فيـه الأحـداث والوفيـات، سـماه " العبـر فـي خبـر مـن غبـر" وذكـره يتـردد فـي الهوامش.

وكـان يعاصـر الـذهبي أبـو بكـر بـن عبـد الله بـن أيبـك الـدوادار صـاحب صـرخد، ولـه كنـز الـدرر وجـامع الغُـرر، ألفـه للناصـر بـن قـلاوون وهـو فـي تسـعة أجـزاء أولهـا فـي بـدء الخلـق وثانيهـا فـي الأمـم القديمـة وثالثهـا فـي السـيرة النبويـة والخلفـاء الراشـدين، والرابـع فـي الدولـة الأمويـة، والخـامس فـي الدولـة العباسـية، والسـادس فـي الدولـة الفاطميـة، والسـابع فـي الدولـة الأيوبيـة، والثـامن فـي دولـة المماليـك البحريـة، والتاسـع فـي دولـة الناصـر بـن قـلاوون، منـه نسـخة بـدار الكتـب المصـرية وهـو كتـاب جـدير بالنشـر. ونلتقـى بـان كثيـر الـذي مـر ذكـره بـين المفسـرين المتـوفى سـنة ٧٧٤ ولـه البدايـة والنهايـة، وهـو فـي التـاريخ

---

(١) انظر في الذهب الدرر ٤٢٦/٣ ونكت الهميان ٢٤١ وفوات الوفيات ٣٧٠/٢ والبداية والنهاية ٢٢٥/١٤ وتاريخ ابن الوردي ٤٣٩/٢ وطبقات القراء ٧١/٢ ومرآة الجان ٣٣١/٤ والسبكي ١٠٠/٩ والوافي بالوفيات ١٦٣/٢ و النجوم الزاهرة ١٠ /١٨٢ والشذرات ١٥٣/٦ والبدر الطالع ١١٠/٢.

(٢) انظر السبكي ١٣/٢ وما بعدها.

العام، عُنى فيه بالسيرة النبوية مميزا بين الوثيق والمتهم في الأخبار، ومضى فيه يجمع بين الأحداث والوفيات على مر السنين حتى سنة ٧٦٧ للهجرة. وجاء بعده زين الدين بن الشحنة [١] الحلبي المتوفى سنة ٨١٥ وله في التاريخ العام " روض المناظر في علم الأوائل والأواخر " انتهى فيه إلى سنة ٨٠٧ وهو مجلد واحد طُبع قديما على هامش الكامل لابن الأثير. ونلتقى بعده ببدر الدين العيني الذي مر ذكره بين المحدثين المتوفى سنة ٨٥٥ نشأ بحلب وتفقه على أبيه وكان قاضيا حنفيا وعلى غيره من فقهاء حلب الأحناف، واختلف إلى شيوخ دمشق وبيت المقدس والقاهرة، وتقلد مناصب مختلفة في القاهرة ودمشق منها الحسبة وقضاء الحنفية، وله عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، وهو تاريخ عام منذ بدء الخليقة حتى سنة ٨٥٠. وممن نلتقي بهم في أيام العثمانيين الجنابي مصطفى [٢] بن حسن المتوفى سنة ٩٩٩ وله في أحوال الأوائل والأواخر تاريخ حافل بتاريخ الجنابي يؤرخ فيه لثلاث وعشرين دولة إسلامية في مجلدين حتى سنة ٩٩٧ قال صاحب كشف الظنون لم أر كتابا جامعا لدول العالم مثله. وكان يعاصره القرماني [٣] أحمد بن سنان الدمشقي المتوفى سنة ١٠١٩ وله أيضا تاريخ عام للدول الإسلامية سماه: " أخبار الدول وآثار الأول" طبع قديما ببغداد في ٥٠٠ صفحة.

وبجانب هذه الكتب التاريخية الكثيرة في التاريخ العام صنف مؤرخو الشام كتباً فرعية خاصة ببعض الدول، من ذلك: " نُصة الفطرة وعُصرة القطرة" للعماد الأصبهاني، وهو تاريخ للسلاجقة وأتابكتهم ووزرائهم، اختصره الفتح البنداري سنة ٦٢٣ بكتابه " زبدة النصرة ونخبة العصرة" طبع في القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق. ونلتقى بأبي الشامة [٤] الحافظ المقرئ المؤرخ المقدسي الشافعي عبد الرحمن بن إسماعيل المتوفى سنة ٦٦٥ وله كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: دولة نور الدين ودولة صلاح الدين في وصف معاركهما وانتصاراتهما الكثيرة على حملة الصليب، وعادة يسرد المعركة، ثم يعرض لوحاتها الشعرية البديعة التي تصور مجد العرب

---

(١) راجع في ابن الشحنة الضوء اللامع ٣/١٠ والشذرات ١١٣/٧ والبدر الطالع ٢٦٩/١.

(٢) انر في الجنابي دائرة المعارف الإسلامية، وفي معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية مصورتان من كتابه.

(٣) راجع في القرماني خلاصة الأثر ٢٠٩/١.

(٤) أنظر في أبي شامة ترجمة شخصية بقلمه في ذيل الروضتين ص ٣٧ والسبكي ١٦٥/٨ وتذكرة الحفاظ ١٤٦٠/٤ وفوات الوفايات ٥٢٧/١ والبداية والنهاية ٢٥٠/١٣ وذيل مرآة الزمان ٣٦٧/٢ وطبقات القراء ٣٦٦/١ والشذرات ٣١٨/٥

الحربي تصويرا رائعا، وكيف كان هذا البطلان: نور الدين وصلاح الدين يسحقان الصليبيين سحقا ذريعا لا يكاد يبقى منهم ولا يذر.وكتب للروضتين ذيلا من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٦٦٥ وكتب البرزالي [١] القاسم بن محمد المتوفى سنة ٧٣٩ صلة لتاريخ أبي شامة باسم " المقتفى لتاريخ أبي شامة انتهى به إلى سنة ٧٣٨ وذّيله تلميذه الحافظ مدرس النورية تقي الدين محمد [٢] بن رافع المتوفى سنة ٧٧٤ في كتاب سماه الوفيات حتى سنة ٧٧٤ ومنه مخطوطة بدار الكتب المصرية. ونلتقي بابن [٣] واصل محمد بن سالم المتوفى سنة ٦٩٧ وله " مفرج الكروب في أخبار بني أيوب " نشره الدكتور جمال الدين الشيال في ثلاثة أجزاء. وصنف ابن حبيب الحلبي بدر الدين الحسن بن عمر المتوفى سنة ٧٧٩ في تاريخ المماليك حتى أيامه كتابه " درة الأسلاك في دولة الأتراك" ابتدأ به من سنة ٦٤٨ حتى سنة ٧٧٧ وأتمه ابنه طاهر إلى سنة ٨٠٢. ولابن حبيب كتاب في تاريخ أسرة قلاوون وأبنائه سلاطين مصر. ولمرعى الكرمي السابق ذكره أيام العثمانيين نزهة الناظرين في تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين.

ونلتقى بكثيرين من كتاب التراجم والطبقات، ومنهم كتاب عامون لم يخصوا قطرا عربيا بعينه ولا طائفة من الطوائف بعينها، نذكر منهم الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء ويع في نحو خمسة عشر مجلدا- نشر معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بعض أجزائه. ومنهم ابن [٤] شاكر الكتبى الحلبى المتوفى سنة ٧٦٤ وله كتاب فوات الوفيات يقصد كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان، وكأنه تكمله لما فاته، وبه أكثر من ثمانمائة ترجمة لعلماء من كل صنف ولكتاب وشعراء وصوفية وحُكام. وكان يعاصره الصفدي خليل بن أيبك المتوفى أيضا سنة ٧٦٤ وسنلم به في حديثنا عن النثر، وهو أهم من أنجبتهم الشام في كتابة التراجم، وله فيها كتابة الضخم الوافي بالوفيات ويدخل في نحو ثلاثين مجلداً نشرت منها طائفة. وله بجانبه " نكتب الهميان في نكتب العميان

---

(١) راجع في البرزالي السبكي ٣٨١/١٠ وتذكرة الحفاظ ١٥٠١/٤ والدرر ٣٢١/٣ و فوات الوفيات ٣٦٢/٢ والشذرات ١٢٢/٦ و النجوم الزاهرة ٣١٩/٩ والبدر الطالع ٥١/٢.

(٢) انظر في ابن رافع الدرر ٥٩/٤ والشذرات ٢٣٤/٦

(٣) راجع في ابن واصل نكتب الهميان للصفدى ص ٢٥٠ والشذرات ٤٣٨/٥ ومقدمة كتابه مفرج الكروب وخطط الشام لكرد على ٤٤/٤ وله تجريد الأغاني لأبي الفرج جرده من أسانيده، ونُشر في القاهرة.

(٤) انظر في ابن شاكر البداية والنهاية ٣٠٣/١٤ والدرر ٧١/٤ والشذرات ٢٠٣/٦.

" في تراجم من فقدوا بصرهم من مشاهير الأكفاء في العالم العربي على توالى الحقب، وأيضاً " أعيان العصر وأعوان النصر" في مشاهير معاصريه في نحو تسعة مجلدات، وهو حري بالنشر. ويعنى نجم [١] الدين الغزي المتوفى سنة ١٠١٦ بتراجم القرن العاشر ويؤلف فيها كتابه الكواكب السائرة، وعُنيت جامعة بيروت الأمريكية بنشره، ويصنف المحبي [٢] محمد أمين المتوفى سنة ١١١١ للهجرة كتابه: " خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر" كما يصنف المرادي [٣] محمد خليل المتوفى سنة ١٢٠٦ كتابه: " سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ".

ويؤلف العماد الأصبهاني كتابه " خريدة القصر وجريدة العصر" وهو كتاب تراجم لشعراء العالم العربي في القرن السادس الهجري حتى نحو سنة ٥٧٠ وهم موزعون على أقطارهم من إيران إلى الأندلس، نشرت منه أقسام مصر والشام والأندلس والمغرب ونشرت أجزاء العراق. وصنفت بعد العماد في الشام كتب عن الشعراء مثل طبقات الشعراء لمحمد [٤] بن عمر بن شاهنشاه صاحب حماة المتوفى سنة ٦١٧ وكان في عشر مجلدات، سقط هو وغيره مما يماثله من أيدي الزمن. ومما ولنا نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة للمحبي المذكور في بيان محاسن الشعراء بدمشق وحلب والعراق واليمن والحجاز ومصر وبلاد الروم، طُبع في مجلدين كبيرين.

واهتم الأطباء بصنع كتب تحمل تراجمهم، وشاركت الشام في هذا العمل ع طريق ابن أبي أصيبعة الذي مر ذكره بين الأطباء فألف كتابه " طبقات الأطباء" استقصاهم حتى زمن وفاته، وهو أوسع كتب الأطباء تفصيلاً لحياتهم وأعمالهم، وتُعنى الشام بكتب الرجال من رواة الحديث، ويصنف عبد الغني الجماعيلي- كما مر بنا- كتاب " الكمال في معرفة أسماء الرجال " عن رواة الحديث النبوي في كتب الصحاح الستة. وأضاف إليه المزي المار ذكره بين المحدثين تكملات وتصحيحات بعنوان تهذيب الكمال في اثنى عشر مجلدا، وللنووي كتاب في رجال صحيحي البخاري ومسلم باسم رياض الصالحين في ذكر رجال الصحيحين، وعُنى الذهبي باختصار هذا التهذيب

---

(١) راجع في الغزي خلاصة الاثر ١٣٥/١ ومقدمة الجزء الأول من الكواكب السائرة.

(٢) انظر في المحبي سلك الدرر ٨٦/٤

(٣) راجع في المرادى تاريخ الجبرتي ٢٢٣/٢.

(٤) انظر مختصر المرآة لسبط ابن الجوزي: ٤٠١.

وإحسان ترتيبه وإضافة زيادات إليه، وسمى كتابه " تذهيب تهذيب الكمال" في خمسة مجلدات. وللذهبي أيضا ميزان الاعتدال في نقد الرجال أ] رواة الحديث النبوي رتبه على حروف المعجم وهو مطبوع في ثلاثة مجلدات.

وللذهبي كتابان في حفاظ الحديث النبوي وعلمائه: كبير هو تذكرة الحفاظ في أربعة مجلدات ومختصر منها هو طبقات الحفاظ. واختصر السيوطي الأخير مع تكملات وأبقى لصنيعه الاسم، والكتب الثلاثة مطبوعة. وللذهبي كتاب في طبقات القراء لم يكتب له الذيوع إنما كتبت لغاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري المذكور بين القراء المتوفى سنة ٨٣٣، وكتابه يتردد في الهوامش باسم طبقات القراء. ووضعت للقضاة كتب مختلفة من أهمها قضاة دمشق لابن طولون المذكور بين الجغرافيين المتوفى سنة ٩٥٣ وهو مطبوع. وللفقهاء كتب كثيرة في رجالهم وطبقاتهم، وقد صُنف كثير من الكتب عنهم على اختلاف مذاهبه، فللأحناف كتبهم وكذلك للشافعية في الشام قليلين. وكثر التأليف في الحنفية بأخرة من العصر، فلابن طولون السابق ذكره كتاب الغرف العلية في متأخري الحنفية".

وللحنفية كتب في طبقاتهم كانت متداولة ومشهورة مثل الجواهر المضية في طبقات الحنفية لعبد القدر بن أبى الوفا وتاج التراجم لابن قطلوبغا. وكان التأليف كثيراً في طبقات الشافعية ولابن الصلاح المار ذكره بين المحدثين كتاب كبير فيها اختصره النووي ورتبه على حروف المعجم وممن اشتهر كتابه في تلك الطبقات السبكي وكتابه مذكور مرارا وتكرارا في الهوامش. وكتاب ابن [١] قاضى شهبة الدمشقي المتوفى سنة ٨٥١ ترجم فيه لأعلام الشافعية حتى سنة ٨٤٠ وهو مطبوع. ونشط الحنابلة في كتابة تراجم فقهائهم ولابن رجب [٢] الدمشقي الحنبلي المتوفى سنة ٧٩٥ كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى المتوفى سنة ٥٢٦ وهو مطبوع في مجلدين. ولمحمد [٣] بن عبد القادر النابلسي المتوفى سنة ٧٩٧ مختصر للطبقات مطبوع. ونختم كلا منا

---

(١) راجع في ابن قاضي شهبة الضوء اللامع جـ ١١ رقم ٦١ والشذرات ٢٦٩/٧ والبرد الطالع ١٦٤/١.

(٢) انظر في ابن رجب ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦٧ والدرر لابن حجر ٤٢٨/٢ والشذرات الذهب ٣٣٩/٦ ومقدمة الدكتور ساميي الدهان لطبعة الذيل بدمشق

(٣) راجع محمد بن عبد القادر في الدرر لابن حجر ١٣٨/٤ وبروكلمان (الترجمة العربية) ٣٩/٦.

obeikandl.com

في هذا الفصل بالإشارة إلى كتاب الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي [١] المتوفى سنة ٩٢٧ وهو يصور الحركة بل النهضة العلمية التي ظلت أضواؤها تشع في الشام، حتى مع ما غشيها من سحب العثمانيين.

(١) انظر النعيمي عبد القدر بن محمد في الكواكب السائرة ٢٥٠/١ والشذرات ١٥٣/٨.

obeikandl.com